ذاكرة الجدران المعتمة

سيرة ذاتية وجماعية للأسرى في سجون الاحتلال الإسرائيلي في أثناء معركة طوفان الأقصى

تأليف

د. فاروق عيسى عاشور

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

ذاكرة الجدران المعتمة

سيرة ذاتية وجماعية للأسرى في سجون الاحتلال الإسرائيلي في أثناء معركة طوفان الأقصى

تأليف

الدكتور فاروق عيسى عاشور

تحرير

محمد يونس عمرو

مركز الزيتونة

للدراسات والاستشارات

بيروت - لبنان

The Memory of Dark Walls: A Personal and Collective Biography of Prisoners in Israeli Occupation Prisons During Operation al-Aqsa Flood

By:
Farouq I.S. Ashour

جميع الحقوق محفوظة ©

الطبعة الأولى
2025م – 1446هـ
بيروت – لبنان

ISBN 978-614-494-059-4

يُمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما في ذلك التسجيل الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة أو أقراص مدمجة أو أي وسيلة نشر أخرى أو حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطّي من الناشر.

(الآراء الواردة في الكتاب لا تُعبّر بالضرورة عن وجهة نظر مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات)

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات
تلفون: 44 36 80 21 961 +
تلفاكس: 43 36 80 21 961 +
ص.ب.: 14–5034، بيروت – لبنان

بريد إلكتروني: info@alzaytouna.net **الموقع:** www.alzaytouna.net

يمكنكم التواصل معنا والاطلاع على صفحات المركز عبر الضغط على التطبيقات أدناه:

تصميم وإخراج
ربيع معروف مراد

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات 3
إهداء 5
تقديم (1): الأستاذ عقل ربيع 7
تقديم (2): الأستاذة لمى خاطر 9
مقدمة المؤلف 11
السجن أسوأ ما اخترعه البشر 13
السجن معاناة لها تاريخ 17
صدمة العبور 22
أول 24 ساعة في الاعتقال 27
إلى سجن عوفر 33
السجن غير السجن الذي نعرف: 38
1. حلّ الهيئات الإدارية والتنظيمية وتفكيك قيادة الحركة الأسيرة 39
2. الحرمان من كلّ المقتنيات ومصادرة كلّ الممتلكات 41
3. قيود وتضييقات معيشية وخنق حقوقي 42
4. الإهمال الطبي المتعمد 46
5. الاستعمال المفرط للعنف وللقوة غير المبررة في معاملة الأسرى 50
6. صناعة حالة دائمة من عدم الاستقرار المعيشي والنفسي للأسرى 58
7. إثارة الفتنة والاندساس من شرخ الانقسام الفلسطيني الداخلي 63
محاكم الاحتلال... استبداد مقنع باسم العدالة 65
الصمود يكسب الرهان: 71
1. مجتمع السجن 71
2. إدارة خدمات الأسرى 72

3. الحال النفسية والعاطفية.. 73
4. ممارسة الرياضة 77
5. الحالة الصحية للأسرى.. 78
سلبيات في مجتمع الأسرى 80
إيجابيات في السجن بعد الحرب 83
خيار الصبر ودوافع الصمود: 88
1. الثقة بالله وحفظه وتأييده وعدله 88
2. الحياة بالأمل.. 89
3. قدرة الإنسان على التكيف مع متغيرات الواقع.............................. 89
4. الشعور مع أهل غزة.. 92
مصادر الأخبار عند الأسرى 94
يوم الحرية 97
فهرست 103
الكاتب في سطور 112

إهداء

أهدي هذا العمل من قلبي إلى قلبي،

فمن القلب بكلّ ما عاشه صيغت الكلمات،

وإلى القلب تعود،

فهناك يسكن الأسرى العظماء،

وهناك احتفظ الأسرى بحصّتهم جرحاً عصياً على النسيان،

وأهديه إلى غزة، لأهلها وترابها وسمائها وبحرها،

أهديه إلى عائلتي التي شاركتني على البُعد شقاء الصبر ومعاناة المجهول
وقسوة الحرمان،

أهديه للحرية المشنوقة بحبل الاحتلال وإلى الأحرار في كلّ العالم

تقديم (1)

بقلم الأستاذ عقل ربيع

لم يكن إخراجنا من بيوتنا إلى معسكر عتصيون ثم إلى سجن عوفر إلا قطعة من عذاب، ولم تكن شهورنا في الاعتقال الإداري في أقسام عوفر إلا العذاب نفسه، فقد عشنا مرحلة لم تشهد السجون قسوتها وشدتها من قبل، وإنّ من حقّ الأجيال القادمة علينا أن نوثق هذه المرحلة وأن ينهض القادرون منا بهذه المسؤولية الكبيرة.

وفي هذا المضمار الشريف كانت مبادرة الدكتور فاروق عاشور حيث كتب، حفظه الله، فصولاً من سيرة ذاتية توثق سيرة عامة في مرحلة استثنائية من تجربة الأسرى الفلسطينيين، وإنه لشرف لي أن ألبي رغبة المؤلف فأقدم هذا العمل الجميل بهذه السطور المتواضعة.

كانت علاقتي بالدكتور فاروق عاشور في حدود العالم الافتراضي، ولكنها علاقة ممتلئة عرفت خلالها الدكتور معرفة لا تقلّ عن المعايشة والمصاحبة، وكنا نتواصل عبر الفضاء الأزرق (فيسبوك) في أحايين كثيرة، ونتبادل الأفكار والمشاعر.

في قسم 18 في سجن عوفر تشرفت بلقاء دافئ جمعني بالدكتور فاروق، لم نعرف فيه ما يسمّى بحرج اللقاء الأول، فقد غمرنا إحساس لطيف بأننا نعيش لحظة ممتدة تكررت من قبل ألف مرة.

كان الدكتور فاروق يتدفق نشاطاً وتفاؤلاً وأملاً، يدعو إلى الصبر والاحتساب والرضا حتى صارت غرف القسم تنتظر مروره ليجدد العزائم والهمم والثقة بوعد الله عزّ وجلّ.

ولعلّ من تقاليد تقديم الأعمال الإبداعية أن يشير كاتب المقدمة إلى فصول الكتاب، وأن يلخص مضمونه غير أنني لن أفعل ذلك، ولن أحرم القارئ من متعة الغوص في الكتاب، بالرغم من سرده لأحداث مأساوية، ليكتشف وحده ما فيه من إبداع وجمال وقيمة إنسانية.

أختم راجياً من الله عزّ وجلّ الثبات وحسن الختام، فقلوبنا بين يديه وحالنا لا تخفى عليه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

2024/9/24م

تقديم (2)

بقلم الأستاذة لمى خاطر

"إن بعض مواساتنا جاءت من شدة عذاب إخوة آخرين لنا..."، استوقفتني هذه العبارة في كتاب الدكتور والأسير المحرر فاروق عاشور حول تجربة الاعتقال لدى الاحتلال في المرحلة التي أعقبت معركة طوفان الأقصى، ولعلها عبارة كانت تمثل كلّ من خاض هذه التجربة، وظلّ يبحث في شقوق العتمة عما يواسي فؤاده ويبلسم عزيمته، فكان يستصغر مصابه إذا ما قارنه بما هو أقسى منه، وقد وجد نفسه فجأة وسط بحر متلاطم الأهوال، محاطاً بقدر لا حدّ له من الإجرام والحقد ونزعات الانتقام السوداء.

هذا الكتاب يشكل إضاءة مهمة ودقيقة ومفصلة وواقعية ووافية حول واقع السجون بعد الحرب من كلّ النواحي، مقارنة بما كان عليه الوضع قبلها، خصوصاً أنّ تجربة السجون بعد الحرب أصبحت كأنها جديدة، وينبغي أن تُعاد كتابتها، ولعلّ هذا الكتاب الأول الذي يتحدث عن كلّ متعلقات التجربة الاعتقالية في مرحلة ما بعد الحرب من جميع زواياها المادية والنفسية، مع ما فيه من ربط مهمّ بين الانتهاك والغاية منه، وأهمها ما يستهدف الإرادة والنفسية ومحاولات الإذلال، أو إيجاد واقع عدم الاستقرار داخل السجون، أو نشر الفتنة والشقاق بين المعتقلين، وهي أهداف حاضرة دوماً لدى الاحتلال في تعامله مع الأسرى.

الكتاب ليس فقط وثيقة سردية تفصيلية أو وصفية لواقع السجون بل يمكن عدّه دليلاً مُعلّماً للتعامل مع واقع السجون، وكيفية احتمالها والتكيف معها، واستخلاص الدروس من كلّ مواقفها.

وهذا العرض جاء بلغة محكمة وأسلوب سلس لكنه بليغ ومؤثر، ويمكن أن نعدّ الكتاب وثيقة تاريخية، لعلّها الأولى بعد الحرب، وبصياغة رصينة.

من الأمور المهمة في الكتاب أيضاً المقدمات حول واقع السجون فترة ما قبل الحرب وانقلابه بعدها، وكيف أنّ كلّ المكتسبات التي حققها الأسرى سابقاً كانت بفعل نضالاتهم وليس منّة من السجان. كذلك الإشارة إلى الظروف التي سبقت الاعتقال، والوقوف على معركة الطوفان وأثر هذا الحدث الكبير ودلالاته وأهميته، بمعنى أنّ الأثمان التي دُفعت كانت تستحقّ أن تُدفع في ظلّ هذا الحدث الكبير الذي تجاوز نطاقه حدود فلسطين.

كما أنّ الإشارة إلى الواجب إزاء هذه المعركة كان من الأمور التي أحسن الكاتب عرضها، وهو واجب ما كان ينبغي التخلف عنه ولا التردد بشأنه في تلك اللحظات المهمة والفارقة من تاريخ الأمة، فعندما يحضر الواجب لا يعود هناك معنى للتفكير في الأثمان.

ومن أهمية الكتاب أنّه لم يركز فقط على الانتهاكات الجسيمة التي مارسها السجانون بحقّ الأسرى، وهي انتهاكات كبيرة وواسعة تركت آثارها الجسدية والنفسية، لكنّه أيضاً ركز على الجانب المضيء من هذه التجربة من مختلف جوانبه، وعلى حضور الإرادة والتحدي والصمود حتى في عرض تفاصيل أو فصول العذاب، وكيف كان يتمّ المحافظة على المعنويات والتمسك بالأمل والحفاظ على اليقين.

ونجد في الكتاب تفصيلاً لكثير من مظاهر الحياة الإنسانية داخل السجون، حيث يدرك القارئ طبيعة ما يجري بشكل مفصّل حول مجتمع السجون بسلبياته وإيجابياته، وكلّ هذا كان يُعرَض بمصداقية عالية ودون مبالغات أو شعارات مستهلكة، فهناك سلبيات لا بدّ أن تفرضها عذابات السجون، ولكن تقابلها إيجابيات كثيرة نجح الأسرى في مراكمتها وتثبيتها والبناء عليها.

يمكن القول إنّ كلّ ما كُتب عن واقع السجون سواء من كتابات أدبية أم تأريخية خلال المرحلة السابقة لا يغني عن قراءة هذا الكتاب بتمعن، وتدارسه، وهو يستحق أن يوزع على نطاق واسع وأن يعدّ مرجعاً مهماً لهذه المرحلة الخاصة والاستثنائية التي يعيشها شعبنا، وفي ظلّ الحرب على غزة التي كانت السجون تمثل ساحة الحرب الموازية لها، وإن كانت ساحة مخفية لم يطلع الناس على مجريات أهوالها وفجائعها إلا عبر شهادات متناثرة للأسرى الذين خرجوا حديثاً، ومن هنا تبرز أهمية هذا الكتاب الذي جمع أبرز معالم التجربة بين دفّتيه، واجتهد في إبراز ما خفي منها وتأكيد كلّ ما ظنه بعض الناس خيالاً أو لم يستوعبوا حدوثه.

ولعلّ هذه الشهادة المكتوبة بحروف الألم والأمل، والتعب والتحدي، كفيلة بحثّ واستنطاق شهادات أخرى توثق ما جرى من زوايا أخرى، تتكامل لتصنع صورة شاملة لا يجوز السماح بنسيانها أو إسقاطها من ذاكرة هذه المرحلة، المثقلة بالوجع والمدفوعة إلى الأمام باليقين، تماماً كما هو حال أسرانا في زنازين العزل والإنهاك والتغييب.

2024/9/27م

مقدمة المؤلف

اشتدت هجمات الاحتلال على الشعب الفلسطيني بعد عملية طوفان الأقصى، التي وقعت صباح السبت الموافق للسابع من تشرين الأول سنة 2023، قصف وتدمير ومجازر مروعة في غزة، مداهمات واعتقالات وإغلاقات وقتل دون رادع في كلّ مكان من الضفة الغربية، حملات الاعتقال شملت الآلاف، استهدفت كلّ ألوان المجتمع الفلسطيني وطبقاته، كان المعتقلون قادةً وطنيين وشباناً وأطفالاً، نساءً وطالباتٍ وفتيات، شيوخاً ومرضى وذوي إعاقة، أطباءَ ومهندسين ومعلمين ومثقفين، لم تترك يد الاحتلال أحداً إلا استهدفته.

كان اعتقالي فجر الجمعة الموافق للسابع والعشرين من تشرين الأول سنة 2023، لأكون حلقة في سلسلة طويلة من عمليات الاعتقال المنظمة التي شنّها الاحتلال، وهناك اكتشفت العالم الآخر على الحقيقة، وعرفت معنى أن يكون الإنسان أسيراً بلا ذنب، بل إنَّ المذنب سجانه، وهناك اجتمعت بشخصيات ورجال هم أحد خيوط النور القليلة التي يحملها الإنسان معه من تجربة مثل التي نتحدث عنها، الاعتقال مدة عشرة أشهر إدارياً، دون تهمة أو محاكمة، وفي فترة شديدة ثقيلة مختلفة، جاءت في خضم مرحلة عاصفة عاشتها القضية الفلسطينية، ولا أبالغ إن قلت عاصفة اجتاحت الشرق الأوسط والعالم أجمع، كلّ شيء كان مختلفاً، لذلك كان الاعتقال هذه المرة موقفاً يجدر أن يُراجعه المرء بكلّ ما فيه من ذكريات ومعاناة وأفكار وتحليلات واستنتاجات.

نعم، كان يجب أن تُدرَس هذه المرحلة وتُحفَظ؛ لتكون شهادة من الخطوط المتقدمة على عصر فساد الاحتلال وعلوّه، لتكون درساً يفيد منه الحاضر، وجذراً يمتدّ إلى المستقبل يورق بالحقيقة في الأجيال القادمة، غير أنّي لم أفكر ساعة أن أكون من يسجل تلك المرحلة، على أهمية ذلك وضرورته، فمن كانوا في السجن وعاشوا اللحظات الأولى لهذه المرحلة آلاف، ومن أُلحقوا بهم أفواجاً أمثالي آلاف، أيام قبل الإفراج عني، يتردد علي الأسير جمال حمامرة (أبو إسلام)، صاحب التجربة الاعتقالية الممتدة المتنوعة، التي تُجمل شيئاً كثيراً من سيرة نضال هذا الشعب على مدى عقود من الزمان، يأتيني ويخبرني أنّ علي التقدم لهذا الأمر، وضع ثقته فيّ، وحملني أمانة أرجو أن أكون على قدرها، لم يكفّ عن المحاولة والإلحاح في إقناعي طيلة أيامي الأخيرة، أحسست بثقل

الواجب وعظم المسؤولية، حتى شرح الله صدري لما اقترحه الأستاذ جمال حمامرة الذي لم يتركني حتى انتزع مني وعداً بأن أبذل جهدي، وأسخر ما أمتلكه من قدرات لأسجّل شهادتي على هذه المرحلة القاسية بكلّ ما فيها من معاناة ورؤية واستنتاجات.

أجد من الواجب هنا إخبار القارئ الكريم أنّ هذه التجربة الأولى في إصدار كتاب، وجاءت بدافع الحاجة والإلحاح من الأصدقاء، أرجو أن يكون التوفيق قد شاركني في إصدارها وإخراجها على أحسن وجه، وأرجو أن أكون قد وفيت بما انتظَرَه منّي الأصدقاء وأملاه عليّ الواجب.

الدكتور فاروق عيسى عاشور

المعتقل سابقاً في سجن عوفر

2024/9/3م

السجن أسوأ ما اخترعه البشر

السجن صورة سوداء، تجتمع فيها الجدران والقضبان والقيود والأبواب المقفلة والأسلاك الشائكة، يقف وراءها سجان يمسك بمفاتيحَ ليست لأبواب السجن ومداخله، بل لحياة الإنسان الذي سيُلقى في ذلك العالم المغلق الضيق المظلم، وقد قدّر الله لي أن أعاني تجربة الاعتقال مرات عدة على فترات منذ سنة 2010، عرفت بعدها أن كل ما يواجهه الإنسان من مطبات وعقبات وتحديات وصعوبات في حياته منذ أن يُدرَج في هذا الوجود، وكل ما يلاقيه من ظروف وتقلبات، تهون أمام أيام السجن البطيئة في حركتها كأن عقارب ساعتها شلّاء، والسجن الأكثر نكاية لنفس الحرّ الشريف؛ هو أن يسجن لوقوفه عند رأيه، وثباته على مواقفه؛ بل لأنّه يمتلك رأياً وموقفاً سياسياً معارضاً لسلطة الحكم، أو أن يكون مناوئاً لاحتلال ظالم يَسجن شعبه ويسرق أرضه ويعتدي على مقدساته، سجن لا لجريمة أو جناية، إنما هو صورة من صور ظلم البشر وعدوانهم، ما يجعل آثاره النفسية والمعنوية غائرة عميقة، تحفر في عمق النفس أخاديدَ من القهر واليأس والإحباط والألم المستمر، تدفن فيها كلّ معاني الأمل والسعادة والكرامة، هذا عينُهُ ما يَعنيه حجز حرية الإنسان ظلماً.

الحرية كنز أورثه الله للإنسان، وما عقله إلا تجليةٌ لهذه الحرية، فكل الكائنات مقيدة بغرائزها وطبائعها وصفاتها وقدراتها، إلا الإنسان، فهو حرٌّ بعقله المنتج المبتكر القادر على الإبداع، وهنا تبدأ صورة السجن بالانكماش حول هذا المعنى وتضيق شيئاً فشيئاً حتى تكاد تخنقه إنْ وجدت إلى نَفَس السجين سبيلاً، لولا بقية من إيمان وثقة بالله، تمنع سقف الصبر من أنْ يقع، وتحُول دون الانهيار والسقوط في هاوية الاستسلام والإذعان، اللذيْنِ هما الثمن الوحيد الذي يطلبه الطغاة والظالمون والمحتلون من سجناء الرأي والنضال.

السجن ليس جديداً على البشرية، فهو قديم قدم الظلم، والقرآن الكريم أخبرنا عنه وعن ضحاياه، وبيّنَ أنّه أداة من أدوات الإجرام بأيدي الطواغيت، وأطول قصص القرآن دارت بعض تفاصيلها في السجن، فهذا نبي الله يوسف عليه السلام يختار السجن على أن يقع في حبائل الإغراء والشهوة عند نساء القصور، وفي قوله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ

﴿وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾،[1] تهديدٌ واضح وصريح بالسجن لا لذنب إلا أنّه حادَ عن رأيهنّ في الخيانة والشهوة الحرام، وقد اقترن السجن بالصغار كما ظهر في آخر الآية، أما يوسف فقد وافق على السجن واتجه إليه بقلب راضٍ على أن يقع في الشرك المنصوب له، وبذلك يكون قد حفظ نفسه ودينه وما يعتقده، ودفع ثمن ذلك من حريته.

تمضي الأحداث ويكتشف سيدنا يوسف عليه السلام الكرب والعنت الذي دخل فيه، إنّه السجن ببلائه وقسوته وظلمته ووحشته وكلّ ما فيه من اجتراح للوجع وصناعة للألم، فيعمل على الخروج من السجن في أسرع وقت ويتعجل الخلاص، ويوصي الناجي من صاحبيه أن يصل بخبره إلى من بيده الأمر، عساه يغادر هذا الظلام وينطلق شعاعاً من نور إلى فضاء الحرية، يقول عزّ وجلّ: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾،[2] ولولا ما لقيه نبي الله من شدة الكرب وعظيم البلاء لما طلب الخروج، ولكنْ هذه هي حال الحرّ الذي له غاية وهدف، لا يحب أن يعوقه شيء عن غايته، والأنبياء هدفهم الإصلاح والخير للمجتمعات، فكيف تتحقق غايتهم وهم مكبلون بقيود السجن وجدرانه؟!

الصبر ممكنٌ على الألم، لكنه صعب على من تتوق نفسه لأن يعمل وينتج ويبذل ويعطي، فتظلّ روحه محاصرة إلى أنْ تجد نافذة للخروج فلا تتوانى، لتعود سيرتها الأولى التي كانت عليها قبل السجن في العمل والنفع ونشر الخير والسعي إلى تحقيق الأهداف دون كلل أو خوف من تبعات السجن وآثاره، أما آخر قصة الصديق يوسف فتنبّه إلى نعمة الحرية العظيمة، يقول الله سبحانه: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾؛[3] فيخصّ من وجد الحرية بعد أن فقدها هذه النعمة بالذكر تنويهاً بها وإشارةً إليها وإعلاءً لقيمتها.

---

[1] **القرآن الكريم**، سورة يوسف: 32.

[2] **القرآن الكريم**، سورة يوسف: 42.

[3] **القرآن الكريم**، سورة يوسف: 100.

فرعون صورة الفساد والعلو والعتو المثلى، يتهدد هو الآخر نبي الله موسى عليه السلام بالسجن، وكأنّه منتهى العقاب الممكن للداعية إلى الخير، يقول سبحانه وتعالى على لسان فرعون: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾،[4] والسجنُ هنا آكدُ في العقاب؛ لِنَيْلِهِ من روح المسجون، وإيذائه نفسه حتى تنخلع عما تعتقده، وهكذا ينتصر الطاغية، وتنهزم نفوسُ المؤمنين المتطلعةُ إلى أولئك السجناء في طليعة الحرب من أجل العقيدة والرأي والموقف.

تهديد آخر بالسجن ناله رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾،[5] فالقتل ينهيه بشخصه ويبقي أتباعه، أما الإثبات فهو التقييد والسجْن، فيتمنون أنْ يسقط دعوته بخضوعه ورجوعه عما دعا إليه.

الناظر في هذه المواقف والسِّيَرِ يجد أنَّ الحكام الطغاة والاحتلال وجماعة الجور والظلم المتسلطين بالقوة على رقاب العباد هم ورثة أهل مصر من أصحاب الأهواء، وشركاء فرعون في التكبر والتجبر، وأصحاب مشركي قريش في الجاهلية والضلالة، أما ضحايا السجن فورثة الأنبياء في دعواتهم وصبرهم وتطلعهم إلى الحرية والخلاص.

والحقّ أنّ السجن مصيبة تقع على الإنسان فتجرده من إنسانيته أو تحاول أنْ تفعلَ ذلك، تحيط بطموحاته وآماله وتعمل على أنْ تسلبه طاقته وحيويته، تسدّ أمامه الآفاق وتغلق دون إرادته الأبواب، خصوصاً من اعتاد على العطاء والحركة والإنتاج، فإنّه يجد الألم مرتين، تذوب روحه وتتداعى نفسه وتضيق عليه الدنيا وتَسْوَدّ في وجهه الحياة، وكأنه بلا حياة، حتى يكاد السجين في هذه الأيام التي يجتمع فيها السجن مع الغربة يودي بحياته للخلاص، ولا يمنعه إلا بذرةُ اليقين في قاع روحه، نمت وحفظت كيانه من الانهيار، وما تزال تمدّه بالقوة والصبر والثبات ما شاء الله له أنْ يبقى في السجن، ومعه عزيمته وإصراره بين جنبيه، وأمامه مزرعةٌ من مزارع الآخرة، يبني فيها لنفسه ولأهله ولناسه صورة لغد أجمل بإذن الله.

[4] **القرآن الكريم**، سورة الشّعراء: 29.

[5] **القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 30.

الأهل الذين هم صورة أخرى من صور معاناة السجين، ألم الفقد ومرارة الحرمان تياران يعصفان بوالدَي الأسير، ويسرقان من زوجه هدوء النفس وسكينة الروح، ويضربان بقوة في الركن الذي كان يتكئ عليه الأبناء، ويقرعان باب الخوف والقلق لدى البنات، ويزرعان الحيرة والوحدة عند الإخوة والأصدقاء، يلتقي هؤلاء المحبون والناس في مجتمع متشابك من الحزن والشوق، كلّهم يتحسس الأمل في عتمة المجهول، ويعلق الدعاء قناديل تضيء نوافذ الفرج، يبقى الأثر، ولا يمكن محوُ الذاكرة التي بهذا القدر من الألم، لكن الحياة تستمر، وعلى كلّ غصن يبّستْهُ أيام السجن الممتدة تنمو ثمرة تنضجها الحرية القادمة لا ريب؛ فيعود الدم نابضاً في عروق الحياة، وتخضر دروب البذل والعطاء من جديد، وتبيض الأيادي بالعمل؛ لتمحوَ ما بقي من سواد القيود، إن استطاعت، عن الأيدي، ويتّقد من نار الألم الماضي نورٌ يشقّ إلى المستقبل طريقاً فسيحاً لا تحدّه حدودٌ، ولا تكبله قيودٌ، ولا تعيقه سجون.

السجن معاناة لها تاريخ

يفترض في أيّ طارئ على حياة الإنسان أن يكون له حدٌّ أو نهاية، يتحول من واقع إلى ذكرى، الأمر عندما يرتبط بحياة الشعوب يصبح مختلفاً، حيث تدوم الوقائع والأحداث وتستمر استمرارَ وجودِ هذا الشعب، والمعاناةُ جزءٌ من تلك الوقائع التي يعيشها الفرد والجماعة بصور شتى، وقد بدأت معاناة الفلسطيني مع السجون منذ وطِئَتْ أقدامُ الاحتلال البريطاني أرضَ فلسطينَ المباركة سنة 1917، وأطلت جريمة الاحتلال الأبرز بوجهها البشع في الوعد المشؤوم، الذي أعطى ما لا يملك لمن لا يستحق، فتصاعدت وتيرة طمس الهُوية الفلسطينية وكتم صوتها؛ لتحقيق رؤية المحتل وسحق معارضيه، فكانت السجون البريطانية مفتوحةً للثوار والمناضلين والمتيقظين من أبناء الشعب الفلسطيني الذين رأوا الخطر قبل وقوعه، وأحسوا بالكارثة قبل نزولها، فقاموا بفضح المخططات، وكشف المؤامرات، وإعلان التحركات الرافضة لكل ما ينويه الاحتلال لهذه الأرض وهذا الشعب، الأمر الذي لم يَرُقْ لسطوة القوة ولسياسة الاحتلال فواجهها بشراسة، وكان من اختراعات تلك الفترة من الاحتلال البريطاني الاعتقال الإداري الذي يمنح السلطة الإدارية العسكرية للبريطانيين الحقّ في اعتقال المناضلين وزجّهم في السجون دون تُهَمٍ أو محاكمات شهوراً طويلة، ومع كلّ شرارة لثورة وتطور للمواجهة كان يزداد عدد الأسرى والمعتقلين في سجون الاحتلال البريطاني.

وقد أورث ذلك الاحتلال الأول سلطته لوليده الاحتلال الصهيوني على أرض فلسطين؛ حيث تطور ذلك الاحتلال على مرحلتين في سنتَي 1948 و1967، لتستمر سيرة الشعب الفلسطيني في الكفاح والمقاومة فردياً وجماعياً، وكذلك استمرت معاناته في مواجهة القمع والغطرسة والعنجهية الاحتلالية، ومن ذلك السجن والاعتقال، وما يتبعه ويصاحبه من تعذيب وتنكيل وسلب للحقوق وحرب على الإنسانية، مسّ الاعتقال كلّ شرائح الشعب الفلسطيني من جميع التيارات والاتجاهات الفكرية، ومن مختلف المستويات التعليمية والثقافية، ومن فئات الشعب العمرية كلّها، تحول السجن إلى مجتمع جديد مغلق خلف القضبان.

ذلك المجتمع الذي يضمّ نخبةَ الثوار والأحرار، ويقف في طليعته قادة وطنيون، سلك سبيلاً جديداً من أجل الوصول إلى وضع جديد داخل السجون، التي كانت مقابرَ للأحياء بما تحمله الكلمة من معنى، جدران مظلمة، وقضبان باردة، وسجانون بلا قلوب، ضرب مستمر، وإهانات لفظية وجسدية، وممارسات تحطّ من قدر الإنسان وكرامته، أوصاف كلّ واحدة منها تمثل عنواناً لصحيفة من الأفعال الشنعاء التي تعرض لها المعتقلون على فترات طويلة.

وساعدت عمليات الاعتقال المتوالية والمتكررة لكثيرين من أبناء الشعب الفلسطيني على تدريب خبراء في مواجهة هذا الواقع، فقد دخل سجون الاحتلال الصهيوني أكثر من ثلث الشعب الفلسطيني من داخل الأرض المحتلة حسب التقديرات، وقضوا فترات اعتقال متفاوتة من بضعة أيام إلى عشرات السنوات، وواجهوا أصنافاً متنوعة من القمع والتنكيل والإرهاب، فراكموا خبراتهم واستجمعوا قواهم داخل السجون، ونظموا صفوفهم، وخاضوا معارك حقيقية ضدّ الاحتلال، كان سلاحها الأبرز الإضراب عن الطعام، ودخلت الأمعاء الخاوية التاريخ سلاحاً قهر السجان، وصارت أبجديات الإضراب مثل "ميّ وملح" مصطلحات رديفة للعزة والكرامة الإنسانية، فكانت الحركة الأسيرة الفلسطينية بالجوع والصمود تارة، وبالمواجهة والتحدي تارة أخرى، تحقق في كلّ مرة إنجازات وتراكمها على مرّ العقود، حتى وصل الأسرى إلى الحدّ الأدنى من الحقوق التي تنصّ عليها الشرائع والقوانين الدولية، عدا عن الأخلاق والقيم الإنسانية التي لا يعرفها الاحتلال.

الثمن المدفوع لتلك الإنجازات كان أرواحاً أُزهقت، وجراحاً نزفت، وأجساداً أنهكت، مئات من الشهداء، آلاف من المرضى والمصابين بسبب تلك الثورات العزلاء داخل السجون، لكن النتيجة كانت نافعة لأجيال من الأسرى تعاقبوا على السجون منذ أنْ كان الاحتلال، ومن تلك الإنجازات للحركة الأسيرة الفلسطينية:

1. تشكيل الأطر الهيكلية الإدارية والتنظيمية للأسرى الفلسطينيين؛ ما ساعدهم على القيام بأمورهم وإدارة شأنهم ذاتياً، والوقوف أمام إدارة سجون الاحتلال في صفّ موحد وقرار جماعي.
2. انتزاع الحقوق المعيشية المتعلقة بأساسيات الحياة، مثل الملابس والطعام المناسبَيْن، والعلاج والدواء، ولوازم النظافة الشخصية، وغير ذلك من متطلبات ضرورية للحياة كان يتعمد الاحتلال حجبها في سجونه.

3. متابعة الحقوق القانونية، وما كفلته الأعراف للأسرى السياسيين من محاكمات هي في حدّ ذاتها ظلم، لكنها تظلّ أقل وطأة من البقاء في السجن مدداً طويلة دون معرفة السبب، أو المحاكمة دون وجود محامين يعرفون القانون ويدافعون عن المظلومين، وكذلك حقّ الأسرى في زيارات الأهل ومقابلة الحقوقيين وممثلي المؤسسات الدولية المعنية بشؤون الأسرى.

4. العناية بالحياة الثقافية والتعليمية والتربوية للأسرى؛ لتطوير مهاراتهم وتنمية قدراتهم واستثمار طاقاتهم، ومنع الاحتلال من إطفاء جذوتهم، أو هدر إمكاناتهم دون جدوى مع وقت السجن الممتد، وسهّل ذلك وجود شريحة كبيرة من المتعلمين في السجون، كثير منهم من حملة الشهادات العليا، ومنهم المعلمون والأطباء والمهندسون والمحامون، واختصاصات مختلفة أَثْرَت الحركة التعليمية في السجون، وأصبح التواصل مع المدارس ممكناً، وكذلك الدراسات الجامعية بمستويات رفيعة.

5. حلّ النزاعات وفضّ الخصومات وترتيب الأوراق الداخلية، بما يضمن الاستقرار النسبي والهدوء الذي يساعد على التركيز في جوانب أخرى، مثل الوقوف في وجه الاحتلال داخل السجن، وتنمية الأسرى والنهوض بهم.

6. التواصل مع العالم الخارجي، بفرض وجود أدوات مثل أجهزة التلفاز والمذياع، وبتهريب أدوات أخرى مثل الهواتف المحمولة الخلوية إلى السجون، وخوض مواجهات مفتوحة مع الاحتلال في سبيل حمايتها وإخفائها والحفاظ عليها، حيث مثّلت هذه الأجهزة شرياناً من شرايين الحياة، أتاحت للأسير الفلسطيني تواصلاً مطّرداً مع عائلته، وسهّلت تنظيم الشؤون الداخلية والاتصالات بين الأسرى، وأسهمت في تجديد دور الحركة الأسيرة في بناء المشروع الوطني والتأثير فيه بالحضور الدائم.

لا يمكن الحديث بعد هذه المقدمة السريعة عن حياة كريمة كاملة وثابتة الأركان، فالسجن يبقى سجناً، وكلّ ما سبق ذكره كان حقوقاً بالحدّ الأدنى من مسمياتها، والإنجازات التي تحققت والحقوق التي انتُزعت كانت نسبية إلى ما كانت عليه الحياة في سجون الاحتلال سابقاً، وقد تعرضت هذه الحقوق للمصادرة والتضييق جزئياً، ومحاولة تكييف الأسرى مع وقائع اعتقالية قاسية على فترات، فدار الصراع

بين الأسرى وإدارة السجون دون توقف، لتظلّ المواجهة مفتوحة مع السجان، إلا أنّ تلك الفترات كانت محدودة وتنتهي باستعادة الأسرى لحقوقهم غالباً، حتى تمّت إعادة الزمن إلى الوراء لدى الأسرى دفعة واحدة، وتمّ خنق الحركة الأسيرة بسرقة كلّ الحقوق، ونسف كلّ الإنجازات، وإلغاء كلّ القرارات التي كانت في صالح الأسرى، انهيار كامل لمنظومة القوانين والقيم، عاد الاحتلال إلى وجهه القاتم الذي يُظهر حقيقته، كلّ ذلك دفعة واحدة منذ صباح السبت 2023/10/7، مع هدير طوفان الأقصى الأول وخطوات العبور الكبير.

شيءٌ من حسن الطالع والفأل الجيد أنْ يوافق يوم مولد الإنسان ذكرى عظيمة أو حدثاً مهماً، وقد حدث لي ذلك الأمر مرتين، فقد ولدت في 1973/10/7، صبيحة حربٍ بين الاحتلال والدول العربية، كانت منعطفاً في تاريخ المنطقة بصرف النظر عن تفاصيلها، وكانت ذكرى مولدي الخمسين متوافقة مع ذلك اليوم المشهود، استيقظتُ واتّجهتُ إلى صلاة الفجر في المسجد، وعدتُ إلى منزلي بعد الصلاة، وفي نفسي أنْ أمارس الرياضة الصباحية التي اعتدتُ عليها، وقبل أنْ أبدأ اختلست نظرة إلى هاتفي المحمول، كعادة المدمنين على الأخبار، أو المتابعين لكلّ جديد، لست مدمناً عليها بالفعل، أقصد متابعة الجديد، لكنني متابع جيد للأخبار، خصوصاً مع قضية عاصفة كقضيتنا الفلسطينية، بدأتُ أقلّب الصفحاتِ وأستطلع المواقع، كدتُ أنتهي من جولتي تلك، وأعود إلى روتين الحياة اليومي، لكن أخباراً بدأتْ تتسرب عن أحداث غامضة في غلاف غزة، غزة التي تجذب أخبارُها كلّ الأحرار حول العالم، غزة صانعة الأحداث المهمة والأبرز في قضيتنا منذ سنوات طويلة، تمهلتُ وتابعتُ الانتظار والقراءة، انتظار لم يكن طويلاً، فتيار الأخبار الجارف كان أكبر من أنْ تستطيع ملاحقته، انفجارات عنيفة وقصف صاروخي كثيف ينطلق من القطاع.

ماذا يحدث؟ ما القصة؟! هنا بدأت شائعة تسري في الإعلام عن اغتيال شخصية كبيرة في بيروت، وانصرف ظنّ الناس إلى أنّ ما يجري ردٌّ على اغتيال الشيخ صالح العاروري المفترض، فهو من كان الإعلام الصهيوني يحرض عليه، ويدعو إلى اغتياله على مدار أسابيعَ قبل ذلك اليوم، ولكنْ؛ لم يكن الأمر كما ظننا، فقد تجلّت خيوط الحقيقة الصادمة الأولى مع المشاهد التي وردت من غلاف غزة، أول مشهد رأيته سيارة القسام البيضاء تتجول في إحدى مستوطنات الغلاف، تطلق النار على سيارة عسكرية لشرطة الاحتلال، التي فرّت مذعورةً من المكان، وما هي إلا دقائقُ

حتى جاء الإعلان عن خطاب "الظلّ المحمدي"، القائد محمد الضيف بوزنه المعروف، وحضوره الاستثنائي، سيظهر عبر قناتَي الجزيرة والأقصى الفضائيتين، ويأتي النبأ العظيم بإعلان القرار الحاسم، إنّه "**طوفان الأقصى**".

إنّه سيل جارف صنعته الإرادة الفلسطينية المسلحة بالإيمان واليقين، وقامت به الأيدي المتوضئة الماهرة التي صبرت وصابرت وطوت السرّ، وكظمت الغيظ طويلاً حتى حانت ساعة الصفر، صباحٌ كان مذهلاً في كلّ تفاصيله، أحداث متتالية، يقف الإنسان حائراً أمامها بين مصدّق وغير مصدّق، ليس من باب التكذيب، بل من باب الإنكار، بل من قبيل أنّ المشهد لم يكن جزءاً من توقعات أكثر المتفائلين، حدثٌ انطلقَ من نقطة الصفر، ووصل إلى درجةِ الغليان في لحظات، كلّ شيءٍ كان هادئاً قبل أنْ يقع الانفجار الكبير، هو الطوفان بما تعنيه الكلمة، جرفَ كلَّ الأوهام التي بُنيتْ على مدار عقود، حطّمَ الأساطير المنسوجة في مخيّلات الضعفاء، أسقط المزاعم الواهية التي أُلقيت في روع الخائفين، فها نحن نفعل وعدونا لا يعرف ما يحصل، نحن نقول وعدو مبلس ولا يحير جواباً، امتزجت المشاعر فكانت النشوة طافيةً على كثير من الدهشة والصدمة والإحساس بالفخر، هل يمكن للفلسطيني أنْ يفعل كلّ هذا؟! بل هل هناك من يستطيع أنْ يفكر ويقرر مثل هذا التفكير؟!!

انصرف القلب إلى غزة، وانشغل الفكر بصنيعها، وكان من بواعث السرور أنْ يحظى الإنسان بفرصة متابعة المشهد من لحظاته الأولى؛ لأنّ مَنْ تأخر سيفوته الكثير، فذلك اليوم بحاجة إلى أيامٍ لفهم ما جرى فيه، وددتُ لو أنّي أيقظتُ العالم كلّه ليرى ويسمع، وأحسستُ بالشفقة على أولئك الذين فاتتهم بواكير المشهد، نحن الذين واكبنا الأحداث لحظة بلحظة، وكنّا مستيقظين قبل بدايتها لم نستوعب ما جرى، فكيف بمن سيصحو بعد ساعة أو اثنتين أو أكثر؟! كيف سيمكنهم أنْ يرَوْا كلّ الصور والفيديوهات؟! كيف سيستقبلون الخبر أصلاً؟! يا إلهي! شيءٌ من صُنْعِ الخيال! وممكنٌ وُلِدَ من رحم المستحيل!

يومٌ يصعب الحديث عنه، لا تسعف اللغةُ ومعاجمُها الإنسانَ ليعبّر عن اختلاط مشاعره بآماله وتطلعاته وطموحاته، لحظاتٌ كلّ من عاشها له قصة معها، وله انفعال بها، يبقى له الحقّ في رسمها وصياغة ذكرياته عنها، أتركها لكم لتسترجعوها وتعيدوا بناءها واستعادة ذكرياتها.

صدمة العبور

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾، ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾، ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾[6]

نحنُ، الفلسطينيين، كنّا في صدمة وذهول من مجريات الأحداث، نعم، كانت مشاعرُنا فيها شيءٌ من النشوة مغلفة بالقلق والترقب والذهول، الخطب الجلل ذلك الصباح كان أكبر من أنْ يصدقه المرء ببرود، فهو شيءٌ لم نعتدْ عليه، ولم يكن يراود أحلامنا البسيطة وطموحاتنا المتواضعة، فكيف بمن اعتاد على كبر القوة وأَلِفَ حياة الغطرسة والتفوق؟! الاحتلال هو من عاش الصدمة الكبرى مدة يومين، ودخل في حالةٍ من الشلل الفكري والوظيفي، وغياب الوعي والإدراك، وتفكك القدرات وتلاشي الثقة، ضبابٌ أسودُ أحاط به في كلّ مستوياته الرسمية والشعبية، وحالٌ من عدم اليقين والشكّ سادت أوساطه من القيادات السياسية والعسكرية إلى الأفراد في المجتمع، أمرٌ أفصحت عنه بعض التحقيقات، وستؤكده تحقيقات أخرى، أثبتت وستثبت كيف كانت ممارسات الاحتلال جنوناً كامل التشخيص ظاهر الأعراض؛ حيث قتل جنود الاحتلال وشرطته ومواطنوه بعضهم بعضاً، وانتشر بينهم الذعر والخوف والقلق، وفقدوا الإحساس بالأمن دفعة واحدة وبزلزال شديد، كاد يذهب بأركانهم، ويعصف بكيانهم.

يومان من الصدمة التي كشفت عن واقعٍ هشّ، وأظهرت حقيقة القوة التي لم تُجْدِ نفعاً، يومان جاء بعدهما العالم الظالم بقوته الطاغية، وتعرّت سَوْأَتُهُ الفاضحة، هزّ دولة الاحتلال وأيقظها من موقفها المشدوه أمام الضربات، وذكّر المحتلين أنّهم ليسوا سوى أداة لن تترك غارقة وسط أمواج الطوفان، استجمع القوم قوتهم الغاشمة، واستعادوا سطوتهم الباغية، وحشدوا أسلحتهم العاتية، ووقف معهم وإلى جانبهم وفي طليعة قوتهم جيشٌ من نفاق العالم، وسمح لهم أنْ يكونوا كما يشتهون، قَتَلَةً دون رادع، ومجرمين دونَ محاسِب، بل حشرت لهم موارد دول العالم، ووقفت لهم الإمدادات والطاقات من الولايات المتحدة الأمريكية، فتتالى رفدهم بكل المقدرات العسكرية والديبلوماسية والمالية والمادية، وجاء سحرة العالم من أوروبا لنصرة

[6] **القرآن الكريم**، سورة المدّثر: 21–22.

فرعون، ولم يبقوا شيئاً يستطيعونه إلا فعلوه، ولم يدخروا جهداً إلا بذلوه، ولم يحتفظوا بسلاح إلا أخرجوه، وكأنّهم في مواجهة عالمية مفتوحة، وليسوا أمام شعب مسحوق مقهور مظلوم لسنوات، استطاع في غفلة من الكبرياء والجبروت الاحتلالي أنْ يصفع ظالمه ويصرعه أرضاً، نسيَ أربابُ السلام العالمي كذبهم، وتجاهلوا ما اصطنعوه من قوانينَ وقواعدَ، وتجاوزوا كلّ المحرمات، وجعلوا الطاغية الجلاد ضحية، وصيّروا الثائر المظلوم ظالماً، وعلّقوا مشنقة العدالة وأهدروا دم الحقّ، وصفق لهم جمعٌ من الخائنين ممن رفعوا الإسلام شعاراً والعروبة هُوية، ومالأَهم كثيرٌ من أدعياء الشرق والغرب، فبدأت الحرب العدوانية على غزة، رفعت علم الطغيان، وخلعت قناعها البريء، وبدت صورتها الوحشية، وداست القيم، وسلّت مخالب الهمجية، انفلتت الوحوش من أقفاصها، ووجدت إلى غريزتها الدموية طريقاً، مهّدته لها قوى العالم الظالم.

بات القتل عداداً يرتفع دون توقف، والإصابات والجراحات تنزف بلا حدّ، المباني تقصف على رؤوس الآمنين، والمساجد تنسف ومعها أرواح المصلين، والمشافي صارت مقابر للمرضى بعد استهدافها، والمدارس التي اعتادت أن تُؤوِي الناس صارت وجهةً للموت، الموت الذي فاحت رائحته في كلّ مكان، وأطلّ برأسه في كلّ زقاق وحارة وشارع، بل ترك نقش أظفاره على كلّ ركام بيت وعلى بقايا الأجساد المحترقة، آلاف الشهداء جُلّهم من النساء والأطفال والمسنين، صاروا ذكرياتٍ لألمٍ لا يتوقف، بأجسادهم الممزقة، وأوصالهم المقطعة، وأشلائهم المتناثرة، على مساحة قطاع غزة كلّه.

كلّ ذلك ولم يكتفِ العالمُ بالمشاهدةِ الصامتة! بل كان للظالمين ظهيراً ومشاركاً! فمن لم ينصر الاحتلال بالمال والسلاح والرجال، نصره بتسخير قدراته الإعلامية، فدار كذب الصهاينة العالم من أقصاه إلى أقصاه، وتناقلت رواية الاحتلال الكاذبة وافتراءاته، ورَوّجت لها كُبرياتُ وسائل الإعلام العالمية، ونطقت بمزاعم الاحتلال ألسنةُ العالمين، تُبارك أفعال القاتل الباغي، وتدفن صرخات الثكلى والمقهورين، وتطمس الحقيقة الساطعة كالشمس بغربالٍ من الكذب والتزييف والتلفيق والنفاق، وتتجاهل تاريخاً ممتدّاً من ظلم الشعب الفلسطيني وقهره أكثر من مئة عام بين احتلالَيْن، وتحارب محاولته لإعلاء صوته مطالباً بحقّه، وكأنّ التاريخ بدأ صباح السبت، 2023/10/7.

الاستسلام ليس من طبع الإنسان الحرّ، والشعب الفلسطيني ورث الثورة جيلاً بعد جيل، هيّأت له ذلك الإرث سنواتٌ طويلةٌ من الكفاح والنضال لنيل الحرية، ومواجهة لم تتوقف يوماً ولم يُكتب لها أنْ تنتهي، تشتدّ حيناً وتضعف آخر، تتّقد نارُها وتتصاعد فترات وتخبو أخرى، ولكنّ هذا الشعب مهما شغلته متطلبات الحياة في فترات اللا حرب، ومهما ذهبت به المطامح الذاتية لأفراده، يظلّ متأهباً مستعدّاً، مستجيباً لنداء الواجب الذي تفرضه أرض الرباط المقدسة، فما لبثت شرارة الحرب في غزة أنْ أضرمت انتفاضة شعبية في الضفة، جاءت على شكل مظاهرات ومسيرات جماهيرية، وتحركات ووقفات وطنية، خرج الطلاب من مدارسهم وحملوا الحجارة، والأساتذة من صفوفهم ونشروا الفكر، وصعد الخطباء المنابر وحرضوا على النصرة لغزة وأهلها، وسارع المثقفون إلى نشر الوعي وترسيخ القناعات الجمعية بوجوب المقاومة والصمود، وانطلق الإعلاميون إلى منصاتهم وأقلامهم وكاميراتهم وبدأوا ببثّ رسالة الشعب المظلوم ونشر روايته الحقيقية، وتشكل رأي عام جماعي نادر على نصرة غزة والدفاع عنها مهما بلغ الثمن، وقفة أثمرت تجاوباً في العالم كلّه، فتداعى أصحاب الهمم إلى الوفاء، انتشرت الفيديوهات والصور والحقيقة نطقت بلسان الإنسانية المذبوحة، وبدأت شعوب العالم تدرك الموقف، وتحركت إعلاء لكلمة الحقّ، وبات العالم منقسماً إلى قسمين، عالم رسمي يمالئُ المحتلين المعتدين ويؤيدهم، وعالم شعبي استطاع بضميره أنْ يقف إلى جانب الحقّ وأهله، حقٌّ لم يكن بحاجة إلى شرح كثير، أو إلى نظريات وفرضيات ومناقشات، كان يكفي أنْ تنظرَ إلى المشهد بتجرد، وأنْ تراجعَ التاريخ القريب بحياد، وهذا ما تمكَّنَت من توصيله الحركة الإعلامية النشطة عبر منصات الإعلام الرقمي، ومواقع التواصل الاجتماعي، وأسهم في تشكيل وعيٍ عالمي بعدالة القضية الفلسطينية، ومظلومية الشعب الفلسطيني التاريخية.

كنت شاهداً على الأحداث من لحظاتها الأولى كما الكثيرين من أبناء شعبنا، ولذلك أحسست بعبء المسؤولية الملقاة على عاتقي، بادرتُ إلى أنْ أكون جزءاً من تيار العمل الوطني الرديف للشعب الفلسطيني في غزة، وانخرطت في أداء واجبي، واستعملت وسائل التواصل وأدوات التعبير والتضامن مع أهلنا في القطاع، أما الاحتلال فقد تربص بكلّ من شارك في هذه الهبة الشعبية، التي قمع مظاهرها الميدانية من مسيرات ومظاهرات بالقوة فأراق الدماء وأحدث الإصابات والجراح، واستهدف النشطاء والفاعلين والمؤثرين بالاعتقال والتنكيل والتعذيب علناً، لعلّه يستطيع أن يرهب

الآخرين، فيقتل هذا النشاط في مهده، وقد همس في أذني كثير من الحريصين والأهل والمحبين أنْ أكفّ وأتوقف عن نشاطي الشخصي انتصاراً لمظلومي غزة، فالحرب ضروس ووطأة الاحتلال هذه المرة شديدة الوحشية، لكنّ الجريمة العظيمة التي ترتكب في غزة بتفاصيلها القاسية الصعبة على التصور؛ دفعتني إلى الاستمرار، بل وجَدْتُنِي أسابق الزمن لكي أؤدي أكبر قدر ممكن من الواجب قبل أنْ تمسني يد الاحتلال.

شعرت أنّ تأثيري سينبّه عين الاحتلال المحمرة على كلّ من لم يطأطئ رأسه أمام هجمته الغاشمة، تأثير رأيته في حرص كلّ من حولي عليّ، وخوف محيطي ومجتمعي المحلي وأصدقائي ومعارفي وزملاء مهنتي وغيرهم من الشرائح التي أحتكُّ بها كلّ يوم، ومن الناس الذين يتابعونني عن قرب وعن بعد، كلّ أولئك كانوا ينتظرون معي ويترقبون، لكنّ الثمن الذي يمكن أنْ يدفعه الإنسان مهما كبر لن يصل إلى شيءٍ مذكور أمام ما يدفعه أطفال غزة ونساؤها وشيوخها ورجالها تحت مطر القنابل، وأمام فظاعة المشهد كان لا بدّ من الاستمرار، أداء لأقل الواجب الذي تمليه على المرء صلاته الدينية، وكيانه الوطني، وأخلاقه الإنسانية، أينما اتجهت إلى نفسك ستجد غزة تستدعيك، وإلا فإنّك ستنكر ذاتك وستتخلى عن شخصيتك التي تشكلت من كلّ تلك العوامل.

الاتصال الشخصي بأناس من غزة يعطيك فرصة لتعرفَ عن قُرْبٍ أكثرَ أيَّ مصيبةٍ حلّت بهم، وبحكم اختصاصي في طب العيون كان لي صلات بزملاء مميزين من غزة، منهم الدكتور كمال عكاشة، الذي تحوّل بطموحه وإرادته وإصراره من طبيب عيون عادي، إلى مالك لمستشفى عيون خاص في قطاع غزة، بناه بجَهده وعرقه واجتهاده على مدى سنوات، فكلّ صف من حجارة بناء ذلك المشفى وتجهيزه يشكل جزءاً من عمر الدكتور كمال، وبعضاً منه استودعه المكان، وقد أثمر العمل الدؤوب أخيراً، فرأى حلمه واقعاً يتحقق، ولم يكتفِ بما وصل إليه، أكمل مشواره إلى أن حوّل المستشفى إلى مركز أبحاث ودراسات نشرت في مجلات علمية على مستوى العالم، فأصبح منارة للعلم، وفضاء لطلاب الفائدة والنفع، ولا ريب؛ لقد كان هذا المستشفى، على الرغم من أنّه خاص، يعالج آلاف المرضى من أنحاء القطاع كلّها. هذه القصة الجميلة لنجاح منقطع النظير، من إنسان عبر علمه ونفعه للناس الحدود، وطافت أعماله الآفاق

في أبحاثه ودراساته، صارت أمام عيني وعلى مسمعي قصة لمأساة وكارثة مسّت أعماقي، لقد نسف الاحتلال كلّ هذا الجمال العملي والإتقان العلمي، لقد قتل الاحتلال روح الإبداع والإنتاج الفلسطينيتين، تساقطت القنابل والصواريخ تاركة هذا المكان الجميل برسالته وعمله ذكرى، صار أثراً بعد عين، ضاع كلّ شيء في لحظات، كلّ أعمال الدكتور كمال عكاشة ومنجزاته وما استثمره من مال في مشفاه وبيته تحوّل إلى أنقاض، ذهب بها العدوان أدراج الرياح وكأنّ شيئاً لم يكن، فكيف للمرء أن يرى ثمناً مكافئاً لهذا بعد؟!

شيءٌ آخر لا بدّ أن أقف عنده، شيء لعلّ العالم أدركه وعاينه بعينه وسمعه بأذنه، اتصلت بالدكتور كمال عكاشة لأعزيه وأواسيه بعد مصابه، وقد سمعت منه فوق ما وصل إليّ من هول المصيبة، لكنّ المفاجأة أنني لقيت رجلاً عظيماً، صار هو من يدعوني إلى الصمود والثبات، ويحثني على مواجهة المواقف العصيبة بالصبر، أيّ أناس أولئك الذين أريتنا عزائمهم يا غزة؟! ولا شكّ أنّنا كلّنا شاهدنا مثل هذه المواقف من ضحايا العدوان على المواقع والشاشات، وهم يتلون آيات الصبر، ويطبقون بالفعل نصوص الثبات، ويعلمون القاصي والداني مفاهيم العقيدة الراسخة والإيمان الذي لا يتزحزح ولا يهتزّ، صور من الإباء والصمود تُعجز الألسنة، وتورث الإحساس بالتقصير، تشعر الإنسان بالحياء أمام مثالهم.

أول 24 ساعة في الاعتقال

بعدَ حديثي مع الدكتور كمال عكاشة أصبحت هواجس الخوف على نفسي ومصالحي ومركزي الطبي صوتاً ضعيفاً لا أكاد أسمعه، وحاجزاً رِخواً لم يحلْ بيني وبين ما أريد، وستاراً شفافاً لا يمكن أنْ أختبئ وراءه، مضيت إلى ما أستطيعه من عمل المساندة، وما تمكنت منه من واجب النصرة، تضامنت وأيدت وحضرت في كلّ المواقف التي رسالتها دعم غزة وصمودها، ولم أدخر جهداً في الحشد والضخّ الإعلامي وتشكيل الرأي العام الواقف خلف غزة معيناً وظهيراً، دون أنْ أغفل عيني عن واقعي وواقع الضفة الغربية، التي عانت هي الأخرى كلّ ليلة من مداهمات واعتقالات ومواجهات وتهديدات، فمكثت أرقب دوري في أنْ أكون خبر الاعتقال القادم، في سلسلة ممتدة من مئات بل آلاف الأشخاص منذ بداية الحرب.

تجهزت مرات عدة، وانتظرت على باب المنزل مرتدياً ثيابي وحاملاً بطاقة الهوية، حاولت بوقوفي خارجاً أنْ أتفادى شيئاً من عدوان الاحتلال، الذي يدخل المنازل فيحطم ويخرب وينهب ويفسد، ظللت أترقب ذلك الطارق الثقيل الذي يتسلح بظلمة الليل وكأنّ ظلام قلبه وسواد فعله لا يكفيانه، حانت الساعة، إنّها الثانية فجراً، تقدمت قوات الاحتلال نحو المنزل، وصلوا فاستقبلتهم متجهزاً بزادٍ من الصبر وشعور خفي بالقوة، عملية الاعتقال اتصفت بالغلظة والفظاظة دون الضرب، تمّ ربط يدي بالقيد البلاستيكي الحادّ وشدهما بعنف وراء ظهري، عُصبت عيناي بقوة، ثمّ دفعت إلى داخل المركبة العسكرية، دون أنْ يهتموا لاحتمال أنْ أسقط أرضاً، أو أنْ أرتطم بالمقاعد، أو أصطدم بجوانب المركبة الحديدية، عدم اكتراث ولا مبالاة تظهر كيف ينظرون إلى الفلسطيني، وعلى أيّ أساس يعاملونه.

ربما يبدو الموقف عادياً؛ لكنه حمل لي الكثير من المعاني حول العلاقة بين الاحتلال والشعب الفلسطيني، لا أخفيكم، كنت وأنا المعتقل أحسّ برباطة جأش وسكينة، بينما الجنود المدججون الذين يقومون باعتقالي كانوا مرهقين، يغشى وجوهَهم قترٌ من التعب، وأنفاسهم تتسارع، وكأنه تنفس الخائف المذعور، لا قيمة لنا عندهم، لكن لا قيمة لبطشهم عندنا كذلك، وقد صدق الشاعر حين قال: "الموت فينا وفيكم الفزعُ".

تحركت شاحنة الاعتقال وما رافقها من مركبات الحراسة العسكرية، ووصلت بي بعد دقائقَ إلى معسكرٍ لجيش الاحتلال قرب الخليل، ألقاني الجنود على الأرض وأنا على حالي مكبل اليدين معصوب العينين، وبقيت ملقى مكاني ساعتين أو ثلاثاً، الحركة ممنوعة والكلام محظور، وكلّ أنفاسك محسوبة عليك، تحت حراسةِ مجموعةٍ من الأوغاد يتأهبون للانقضاض عليك لأدنى حركة تصدر منك، قدرت حينها من تحركات الجنود أنّني لستُ وحدي، كان الليل ثقيلاً بطيء النجوم، والصمت مطبقاً يلفّ المكان بعباءته الباردة، عرفت لاحقاً بعض من كانوا معي في ذلك الموقف، المحامي صفوان طه أبو سنينة الذي استشهد أخوه لاحقاً وهو في السجن، وأسيرٌ آخر لم أتبيّن شخصيته جيداً في ظلام المكان والأعين المعصوبة، كان فصلاً من فصول المعاناة الخاصة، فهو يعاني من مشاكل في الكلى والمسالك البولية، وقد انتابته آلام حادة واحتاج إلى استعمال دورة المياه، رفض الجنود، واستمرت آلامه وأوجاعه تنهش جسده ساعات مرّت ببطء، حتى سمح له بعد أنْ أخذ منه الوجع مأخذه أنْ يقضي حاجته عند السادسة صباحاً تقريباً.

عند هذه الساعة حضرت حافلة عسكرية إلى المكان لنقلنا، كانت المرابط البلاستيكية الدقيقة المسننة قد نالت منّا، واختلطت أنيابها بلحم معاصمنا، لكن على أيّ حال ها نحن نخطو خطوة أخرى باتجاه المجهول، نقلتنا الحافلة التي سارت بنا قرابة أربعين دقيقةً حتى وصلنا إلى مركز توقيف ومعسكر عتصيون، الواقع بين محافظتي الخليل وبيت لحم جنوب الضفة الغربية، سمحت لي الطريق الممتدة أنْ أشعر بوجود 15 أسيراً أو حول هذا العدد، وكما هو معروف، الكلام ممنوع، والحركة ربما تكلف صاحبها ثمناً من التنكيل والعذاب.

أُنزلنا من الحافلة عند الساعة السابعة، قبلها أو بعدها فالوقت صار يقدر بنبضات القلوب، صرنا نستشعره ونقدره، يحصيه الأسير بخيوط الشمس، وبهمس الطيور في المناطق المجاورة، وبخفقان الرياح، وبحرارة النسمات أو برودتها، هنا الوقت لا يقين فيه، بل شكٌّ مثل واقعنا ذلك اليوم، الذي دفعني للتساؤل: هل هؤلاء الجنود بشر مثلنا حقّاً؟!

هناك ولحظة نزولنا تحسست بجسدي أرضاً مفروشة بالحصى، كان لا بدّ لها أن تترك آثارها فيه، هكذا ظننت، لكنّ الألم الأكبر الذي يزداد شيئاً فشيئاً ذلك البلاستيك

الميت الذي يأكل حياة أيدينا، ويخنق قلوبنا التي تنبض فيعصر هو شرايينا وأوردتنا حتى تكاد تتوقف، بدأ الخدران يسري ويتوغل في الأوصال، ألمٌ حادٌّ وأسنان بلاستيكية تنهش روح اليدين، وتسلخ الجلد فتسيل قطرات من الدم تفوح قهراً، وزيادة منهم في نكايتنا أرغمونا على الجلوس جثيّاً على الركبتين، يصبح الوقت وجسد الإنسان وسيلة في تعذيبه، ما يلبث الألم أنْ يظهر تنميلاً ثمّ يتحول إلى إحساس بالشلل وكأنما قد قطعت ساقاك، هذا كلّه كان البداية لا أكثر.

أحاط بنا الجنود من كلّ جانب، ثمّ بدأت مرحلة جديدة من الجريمة، انهالوا علينا ضرباً بكلّ شيء، بأيديهم وأرجلهم والهراوات وأعقاب البنادق، ولو وصلت أيديهم لوسائل أخرى حينها لفعلوا، افترسوا ضعفنا كما يفعل ضبع جائع مع ليث جريح مكبل، لم يعفوا شيئاً من أجسادنا من أذاهم، ووسط ذلك عاصفة من السباب والشتائم والإهانات، تناولوا فيها ذواتنا وأعراضنا وغزة والمقاومة، لقد فاضوا بما فيهم من حقد وكراهية للإنسان، وبدا سيّء ما كانوا يخفون، لن تنالنا ولن تنال أمهاتنا وأخواتنا وبناتنا وغزتنا ومقاومتنا شتائمهم، لكنها تجلد النفس وتؤذي الروح، فمن هو ذاك الذي يسبّ ويشتم؟!

ذلك اليوم العصيب كان عاصفاً بمواقف مروعة، الكلام الممنوع وسيلة لتعذيب من يتكلم ومضاعفة أذاه، غير أنّ الألم يصرخ داخلنا بصوت مرتفع ويبحث عن نقاط الضعف في أجسادنا فيتسرب منها كلمات تبحث عن أمل في الرحمة، والمؤسف أنّ هذا الأمل كان في غير محلّه، فجواب سؤالي من قبل: هؤلاء ليسوا من البشر يقيناً، إنّهم وحوش تربوا على البغضاء وإنكار الناس وإهدار حقوقهم والتعالي عليهم، اشتكى أحد الأسرى معنا من ألم ساقه التي عانى بها من كسر لم يكتمل شفاؤه بعد، فخصها الجنود بالضرب وزادوها ضعفاً من العذاب، لقد تعمدوا تجديد كسرها، ضربوها بحديد البنادق وبالهراوات المعدنية والخشبية.

لا يتوقع الإنسان الطبيعي بعد هذا خيراً، لكنّ الأمل هو ما يحافظ على الإنسان أحياناً وهو ما يؤذيه أحياناً أخرى، ارتفعت شمس الظهر فوق رؤوسنا، وبدأت أشعتها تلفح وجوهنا، وتحرق جلودنا المتهالكة بفعل الضربات واللكمات، وبدأ البلاستيك ينغرس في أيدينا أكثر مع ارتفاع درجة حرارته، اضطر أحد الأسرى إلى الشكوى من شدة الألم الذي كاد يفقده الوعي، أشار إلى يده الدامية وضيق القيد

حولها، فجاء الجندي وأسعفه بشدّ المربط البلاستيكي أكثر حتى غابت أطرافه في لحم الأسير، وماذا بعد؟ ماذا تبقى من الفظاعة لم تفعلوه! لمعتقلين مقيدين منهكين عزّل؟!

لا بأس؛ فهناك دوماً لمن يريد التمادي مجال، والظروف التي كنّا فيها أغرت الجنود بتسلط وتكبر وتجبر، الوقت قارب الظهر، والشمس من المفترض ألا تكون لاهبة في مثل هذا الوقت من السنة، لكنّها كانت حارة بما يكفي لتؤذينا ونحن ملقون في العراء جثيّاً على ركب لاكت عظامها الحصى تحتها، وفوق ذلك العطش الذي ضاعفه التعذيب المستمر دون توقف، يضربك جندي على ظهرك، تنحني من شدة الضربة، فيتلقاك آخر من أمامك بركلة في الوجه أو الصدر، تتخطفك الهراوات كلّ لحظة، تنزف الدماء، يتصبب العرق، يجفّ الحلق، شعرت بتشقق شفتيّ وجلدي عند منتصف ذلك اليوم، طلب أحد إخواننا الأسرى شربة ماء، شربة ماء لا تُمنع عن ألدّ الأعداء في الأعراف الإنسانية والموروثات الدينية، فكيف بأسير لا حول له ولا قوة؟ نعم، هي ليست متاحة فهذا العدو مختلف، بل تقدم أحد الجنود وتبول على رأس الأسير ووجهه، لا تجد الكلمات معنى لوصف الموقف، هذا ضرب من الجنون الأخلاقي والسعار القيمي لم تسمع عنه البشرية من قبل.

الغايةُ من كلّ هذه التصرفات زراعةُ الخوف في النفوس، والقضاء على الكرامة، وقتل الإحساس بالحرية والرغبة في الخلاص، أرادوا لليأس أنْ يلوّن جدران حياتنا، وللإحباط أنْ يتملك مفاتيح نفوسنا، عملوا على سلب إرادتنا وتجريدنا من شخصيتنا، ها هم يقتربون من أحد الأسرى بيننا، فيجبرونه على الركوع واقفاً، ثمّ يملون عليه أنْ يصيح بشتم أمه، وأنْ يسيء إليها بأبشع الألفاظ والكلمات، ومحاولته تجنب ذلك تعني العذاب الشديد والنكال الأليم، ستتقاذفه الركلات وتصيبه العصي من كلّ جانب، وربما وصل إلى الموت، حقّاً الموت، فالتهديد بالقتل لم يبارح ألسنتهم منذ وصلوا بنا إلى هذا المكان، لقد تباروا في ذكر أساليبه إمعاناً منهم في الترهيب، كالقتل رمياً بالرصاص، أو دوساً بالأقدام، أو بتحطيم العظام، أو شنقاً على مدفع دبابة متجهة إلى غزة، غزة والأمهات هدفهم من كلّ هذا، غزة التي تمثل جذوة الأمل الذي يجب أن ينطفئ بصمت داخل كلّ واحد منّا، والأمهات مثال المقدسات التي ينبغي علينا أنْ نفرّط بها لنأمن جانبهم، وننجو من شرّهم ونفلت من بطشهم، على الرغم من أنّ ذلك الأمن وتلك النجاة ليست إلا زيفاً مؤقتاً ستتاح له فرصة الانكشاف يوماً، كما

انكشفت سوأتهم، ومنتهى إجرامهم لنا عبر مشاهدة واقع غزة المفجع، أو واقعنا في كربة ذلك اليوم.

بقينا على تلك الحال منذ شروق الشمس تقريباً إلى حدود الساعة الرابعة، أكثر من تسع ساعات تحت التعذيب والضرب والإهانة والترهيب، وجاء دور فصل آخر من الواقع المرّ لشعبنا في مواجهة احتلالٍ يبدو أنّه الأسوأ بكلّ وجوهه وملامحه، عرفنا من كلام الجنود أنّنا سندخل إلى غرف المعتقل في مركز توقيف عتصيون، الخطوة الأولى هي العرض على طبيب المركز هناك، عُرضنا عليه واحداً تلو الآخر، ويؤسفني أنّني لم أجد طبيباً، ربما مسّني هذا الموقف أكثر من غيري، فأنا طبيب أغار على شرف مهنتي، وأحرص على طهارة هذا العمل الإنساني، وأعرف قيمة الطب للبشرية، والدور الملقى على عاتق الطبيب، وأحتفظ بصورة مثالية لما يجب أنْ يكون عليه الطبيب، أما هذا الذي أدخلنا عليه فربما درس في كلية الطب فعلاً، لكنّه لم يفهمْه، ولم يدركْ حقيقته أبداً.

استقبلنا هو الآخر كباقي الجنود من طينته بالسبّ والشتم والفحش والبذاءة، وتجاهل كلّ ما فينا من كدمات وآثار اللكمات، وخيوط الدم وتقشر الجلد وخطوط القيود، وتعامى عن أجسادنا المنهكة المعفرة بالتراب، روتين لا أفهم سبب احتفاظهم به إنْ كان ليس له دور، إلا أنْ يكون شاهد زور، وناطقاً بالكذب، يريدون أنْ يستمروا بكذبهم وادعاءاتهم بناء عليه.

تأملت في حالي ومن معي من الأسرى وحال هؤلاء الجنود، كنّا وإياهم في سباق على الكرامة، كنّا وإياهم في رهانٍ على الاستسلام، وفي تحدٍّ: هل نسقط أمام عنجهيتهم؟ كانوا كمن يصلح زجاجاً مثقوباً بتحطيمه، وكنّا كمن يجمع رماده بعد حرقه ليحيا من جديد، أدخلونا إلى غرفة الأمن، كنّا قد رأينا الضوء لأول مرة منذ الفجر عند دخولنا على الطبيب، أزالوا العصابة عن أعيننا، أحسسنا بشيءٍ من الراحة، وأيّ راحة؟!

قاموا بقطع القيد البلاستيكي عن أيدينا عند التفتيش الأمني، فتدفق دم قلوبنا حاملاً تياراً من العزم وإحساساً بالإفلات من فخّ الهزيمة، دقّت يداي بالحياة من جديد؛ استشعرتُ على الحقيقة مقدار الألم الذي صاحبنا منذ الفجر المبكر، ومضة جالت في خاطري قبل أن لا يقف الإجرام عند حدّ، أجبرنا على تفتيشٍ جسدي عارٍ، صودرت منّا كلّ حاجاتنا وما حمله بعضنا معه من بيته من هاتف، أو مبلغ من المال،

حتى بعض الملابس، فُتشنا عراةً بالكامل، أرادوا القضاء على آخر معاقل الكرامة ورموز الإنسانية التي ما زلنا نشعر بها، قصدوا إهانتنا وقتل روحنا المعنوية، لكن الشعور بالإهانة وسقوط الكرامة مرتبط بخصمك ومن يكون، وخصمنا شيءٌ لا إنسان، إنّه الكراهية والعنصرية والوضاعة متمثلة في جسد، لا سبيل إلى ذلك الإحساس الذي أرادوه لنا، ولا مغزى من أنْ تشعر بالوهن لتغلبهم عليك بسطوة السلاح وتآمر العالم وخذلان الأقارب، أنت أقوى منهم نفساً، وأصلب منهم جانباً، وأكرم منهم روحاً، وأعلى منهم قدراً، وأحسن منهم خلقاً، وأوفى منهم ذمة، أنت كلّ هذا، وهم ليسوا أهلاً أنْ يقارنوا بك.

هذا أنت أيها الفلسطيني وذلك هم، فليس عليك أنْ تحزن أو تبتئس لما صنعوا ويصنعون، أحسستُ بعد انتهاء التفتيش بأنّني انتصرت، ما زلت أحتفظ بكرامتي كاملة غير منقوصة بل وزيادة، ووجدتني أختزن عزيمةً تكفيني لمواجهة مواقف أخرى ربما تكون أشدّ، لم أخسر إرادتي ولا فرطت بمعنوياتي بالرغم من كلّ شيء، وكذلك إخواني الذين كانوا معي أو سبقوني أو لحقوا بي فيما بعد.

اكتمل دخولنا إلى غرف السجن المؤقت، غرف ضيقة سوداء الجدران، تفتقر لأدنى شروط الحياة الإنسانية، فيها مجموعة من الأبراش،[7] وهي معرّاة من الفراش، وفي زاوية الغرفة دورة مياه اقتطعت من الغرفة نفسها بحواجز من الصاج على ارتفاع متر ونصف أو أقل، فيتلوث هواء الغرفة بالرائحة الكريهة المنبعثة من خطوط المجاري المتصلة بدورات المياه هذه، والخروج من الغرفة ممنوع إلا لدقائقَ معدودةٍ مرتين في اليوم لتناول الطعام، الطعام الذي نسمّيه كذلك لأنّنا اضطررنا لأكله مع كلّ ما لقينا من عنت وتعب ومعاناة وآلام.

[7] الأبراش: مفردها بُرش، وهو حصير صغير من سعف النخل يُجلَس عليه، ويطلَق على صفيح حديدي بطابقين ينام عليه السجناء.

إلى سجن عوفر

مكثتُ في معتقل عتصيون ليلتين، جاء بعدهما دوري في النقل إلى معتقل عوفر، حضرت القوة العسكرية المكلفة بنقل الأسرى قُبَيْلَ العاشرة، وباشروا بإخراجنا من مركز توقيف عتصيون، عدنا إلى عَصْبِ العينين بشدة، وكأنّ عينك تنوي الفرار فتحتاج قوة كبيرة لتثبيتها، القيود هذه المرة كانت حديدية، سلاسل في اليدين وراء ظهرك، وفي الرجلين، تمّ اقتيادنا بالدفع والركل والضرب، وَبِوَابلٍ من الشتائم إلى عربات النقل، وصلنا إلى سجن عوفر عند الساعة 11 تقريباً، وتمّ تسليمنا لإدارة السجن التي بدأت بإجراءات إدخالنا، فعدنا إلى التفتيش العاري المقيت، والامتهان المزري بالإنسانية، ثمّ صودر منّا ما تبقى لنا من ملابس، ولم يسمح لنا أن نحتفظ بأكثرَ من الملابس الداخلية، أعطيَ كلّ واحد منّا ثياباً خاصة بالسجن بُنّية اللون أو ما يعرف بـ"لبس الشّاباص"،[8] كلّ ذلك يجري في ضوضاء من الإهانات والتنكر لقيمة الإنسان، ثمّ أدخلنا للعرض على الطبيب، الذي أثبت هو الآخر أنّه من قومه، وأنّ الشرّ صفة لازمة لهم، لم يقمْ بأيّ فحص طبي، بالرغم من أنّ ذلك كان ضرورياً لكلّ واحدٍ منّا بعد ما لقيه من تعذيب وسوء معاملة وتردّ في الأكل والشرب طيلة أيام سابقة، بل زاد بفظاظة وعجرفة بالإسهام في كيل السباب والإهانات اللفظية المختلفة، وأحب أنْ يسردَ علينا ذريعته الكاذبة في مهاجمتنا والاعتداء علينا، فنحن في نظره كما زعم دواعش ومغتصبو نساء وقتلة أطفال! يتفاجأ المرء بكمية الكذب والتزييف التي يعيش في دنسها هؤلاء القوم، أليسوا هم من اخترع قاعدة اكذبْ، ثمّ اكذبْ، ثمّ اكذبْ، حتى تصدق كذبك؟!

خرجنا من غرفة طبيب السجن أو ما قيل لنا إنّه طبيب، ثمّ تمّ تجميعنا في غرفة صغيرة لا تزيد مساحتها عن تسعة أمتار مربعة، لم نكن عشرة أو عشرين، لقد كنّا ما يقارب خمسين رجلاً، حشرنا بين تلك الجدران التي كادت أنْ تتداعى من شدة الضغط والاكتظاظ، وسرعان ما عرفنا ما نحن فيه من ضنك، العرق يتفصد من

[8] الشّاباص: أو الشّاباس، اختصار دالٌّ على مصلحة إدارة السجون الإسرائيلية، وهي الجهة المكلفة بإدارة السجون والإشراف عليها.

أجسادنا بغزارة، وحرارة أجسادنا تلهب بعضنا بعضاً، وأنفاسنا تكاد تنقطع من شدة الاختناق في ذلك الزحام الإجباري، لا مكان للحركة أو الجلوس، ونصيبك من هذه الغرفة موقف قدميك، قدمان ربما لن تحتملا الوقوف الطويل حتى العاشرة ليلاً كما حصل معنا، لولا أنّنا استند بعضنا إلى بعض دون خيار، وأسندتنا الجدران فلا نسقط، ليس لقدرتنا الفائقة على الاحتمال بل لأنّه لا مكان للسقوط.

هذه الإجراءات وغيرها لم تكن معروفة أو معتادة في السجون عامة وسجن عوفر خاصة، فمعظمنا أصحاب تجارب اعتقالية سابقة، وقد عايشنا انتصارات الأسرى ومنجزاتهم، تجاوزت ما نحن فيه وبدأت أحلم بلقاء إخواننا الأسرى الأبطال في أقسام السجن، وحلم معي آخرون بصوت مرتفع، حيث تأملنا أن نستريح من هذا العناء، نلتقي إخواننا الذين يستقبلوننا بدفء ينسينا قسوة الأيام الماضية، نُسرّ بحديثنا إليهم، نأنس باجتماعنا معهم على موائد الطعام التي نعدّها نحن الأسرى بأنفسنا، نتشارك ممارستنا للأنشطة الرياضية كلّ صباح، نتكامل بالدخول في حلبات النقاش والتفكير وتدارس الأوضاع ومتابعة الأخبار عبر التلفاز أو الراديو، ونحن نذرع ساحة الفورة بخطانا المتلاحقة جيئة وذهاباً في تجاذب لأطراف الحديث وتبادل للمعرفة والأفكار، فنجلو الذهن وننشط البدن ونمتع البصر برؤية سماء أسيرة وبعض خيوط الشمس من الصباح إلى ما بعد العصر، ولا بأس ضمن كلّ ذلك بشيءٍ من التسلية، وتناول المشتريات الطّيّبة من بقالة السجن (الكنتينة)،[9] شعرنا أنّ ذلك كلّه سينسينا ما لقيناه وسيجعل تفكيرنا مشغولاً بغزة وأمرها وتطورات الحرب وأحداثها، وبمن خلّفنا وراءنا من أهل وأحبة وبلد على صفيح ساخن.

الصدمة كانت بما وجدناه أمامنا في السجن، كنّا نحسّ بسعادة متواضعة أنّنا نجونا من مأزق المكوث الطويل في معتقل عتصيون الكريه، أو غيره من مراكز التوقيف المؤقت، وجدنا أنفسنا في مأزق آخر لا يقلّ عنه صعوبة، كان نصيبي أن أدخل قسم 18

[9] الكنتينة: مصطلح يطلق على ما يمكن وصفه بأنه بقالة السجن، وهي غرفة مخصصة توضع فيها بعض البضائع المحدودة، يمكن للأسرى الشراء منها مباشرة، أو عبر زملاء محددين منهم، بعض هذه الغرف موجود داخل الأقسام، وبعضها خارج سياج بجانب القسم، ويطلق هذا المصطلح كذلك على المال الذي يودعه الأسرى في حساباتهم عند إدارة السجن عبر البريد، حيث لا يسمح لهم نهائياً بحمل أيّ نوع من المال، ويتمّ الشراء عبر أرصدتهم الّتي عند الإدارة، وبإشراف واحد من الأسرى الذي ينظم العملية ويضبط الحسابات.

في سجن عوفر، ومن فضل الله عليّ أنّني أودعت الغرفة رقم 2 في ذلك القسم، وصلت الغرفة عند الساعة 11 ليلاً تقريباً، يوم كان شاقّاً وطويلاً بما يكفي ليغرس أنياب التعب والإرهاق والجوع في جسدي، انتظرت خلف باب الغرفة حتى فتح السجان كوّة صغيرة في أسفل الباب تسمح له أنْ يفكّ القيود عن معصمي، وهو في مأمن، كان الجميع قد استيقظوا على أزيز الباب الكهربائي الذي يشبه طنيناً صاخباً، جلسوا في أماكنهم وانتظرنا انصراف السجان، العتمة تلف المكان وبالكاد تبدو الملامح وسط الظلام الذي لا يقف أمامه إلا خيوط من الضوء تتسلل من وحدات الإنارة الخارجية حول السجن، تعبر قضبان شباك الباب والنافذة الغليظة لتتيح لنا بقايا قدرة على الإبصار.

من المألوف في السجون في مثل هذه الأوضاع أنْ يجتمع الأسرى ويقدموا الضيافة لزميلهم الجديد في الغرفة، لكنّ لا أحد تحرك فليس لديهم ما يقدمونه، شعرت ببعض العزاء وشيء من المواساة عندما خاطبني إخواني هناك: دكتور فاروق عاشور، أهلاً وسهلاً بك، والحمد لله على سلامتك، شعور بالألفة والمودة حمله هذا الترحيب، أحسست بالامتنان لهذا فكم هو جميل أنْ تعيش بين من تعرفهم ويعرفونك، فتحسن معاملتهم ويحسنون تقديرك، تحترم منازلهم ويكرمونك، تحفظ ودّهم ويحفظونك، هدأت وشعرت بقشعريرة الأمن بعد القلق، سريعاً نهض أحد الإخوة وأعدّ لي ساندويش لبنة، قدّمه إليّ مشبعاً بالحب والإيثار، مرفقاً بشيء من الحياء والاعتذار، فليس هذا من عاداتنا ولا مما نرضاه، لكنّه حكم القوي وجبروته، هذا كلّ ما يملكه إخواني الأسرى، قدموه إليّ راضين، تناولته على جوع طويل بنهم ولهفة، ثمّ أقبلت على الماء أشربه وكأنّه غاب عني منذ دهر، لقد كان يوماً طويلاً نزفنا فيه العرق دون توقف في زحمة تلك الغرفة، حتى جفت أجسادنا، شربت وشربت دون أنْ أرتوي، وما انشغلت عن الشرب إلا بحديثي لأهل صحبتي في هذه الغرفة، الأفاضل الأكارم الأسرى من قبلي، الذين كانوا يتحرقون للحديث إلى القادم الجديد لمعرفة الأخبار والأنباء، فهم معزولون عن العالم تماماً، وكانت مصيبة كلّ أسير جديد فرجاً يأتي بالمعلومات لمن سبقه، هناك وتلك الليلة تعرفت على أخي الأستاذ الحبيب هاني أبو السباع (أبو مجاهد)، الذي قضى 14 عاماً في سجون الاحتلال منذ فتوته المبكرة، فعايش تجارب اعتقالية غزيرة وغنية بالخبرة والمعرفة، أهّلته فيما بعد ليكون عوناً لإخوانه الأسرى وسنداً لهم بما أتيح له من تقديم الخدمات ما استطاع إلى ذلك سبيلاً،

خصوصاً مع إتقانه اللغة العبرية، لغة سجّانينا والمتغلبين على أمرنا في هذا السجن. وقد كان معنا في الغرفة نفسها الأخ نضال بلّوط، والأخ عبد الله عبيّات، والمهندس معاذ أبو عرفة، والطالب في جامعة البوليتكنك في الخليل براء بلّوط، والشاب عزّ الدين الزين.

دقائقُ مرّت سريعة منذ دخلت الغرفة، باغتني بعدها أبو مجاهد بأسئلة أشبهت الاستجواب، لم يكن ظمئي للماء أقل من ظمئه لإجاباتي عن أسئلته، دخلت الحيرة نفسي وظهرت الدهشة على ملامحي المظللة بظلام الغرفة، وسمع الاستغراب في نبرة صوتي وأنا أجيبه، سألني عن غزة، وما وصلت إليه الحرب، عما يقال في وسائل الإعلام، وما يروى عن السياسيين، سألني عن شعب غزة وأحواله وما صاروا إليه، وعن أهل الضفة وموقفهم، وعن التضامن والتفاعل الشعبي والحراك الجماهيري، سألني عن أصداء الحرب وتجاوباتها محلياً وإقليمياً وعالمياً، دخل إلى كلّ زوايا الحياة، فسأل عن المجتمع، وعن الاقتصاد، وعن الأسعار؛ من أسعار العملات إلى أسعار الخضراوات، سألني عن كلّ شيء، وأنا أستغرق في دهشتي أكثر كلما سأل، فالمفترض أنّه سيعرف معظم هذه الأخبار من التلفاز، أو من اتصال هاتفي بالأهل، لقد لفت استغرابي انتباهه مع كلّ سؤال يسأله وجواب أجيبه، قال لي بهدوء: السجن الذي دخلته اليوم ليس كالسجن الذي عرفته أو سمعت عنه من قبل، فكلّ الأمور التي اكتسبناها بنضالنا، وكلّ المنجزات التي حققناها عبر سنوات، وكلّ الحقوق التي ثبتناها ذهبت في لحظات، كانت كلماته هادئة في نبرتها، ذات صدى عنيف في نفسي، نظرت من حولي فلم أجد إلا فراغاً يضمّ أشباحاً من الرجال على أبراش حديدية، التفتُّ ناحية الباب فلم أجد التلفاز معلقاً حيث كان على الواجهة أعلاه، تدلّت بقايا أسلاكه ونتأ جزء من القاعدة الحديدية التي كانت تحمله، جُلْتُ بنظري في أنحاء الغرفة فرأيت رفوف الخزائن فارغة أو تكاد، إلا من قطع ملابس قليلة تحسّ وكأنّها يتيمة، الزاوية التي كان الأسرى يخصصونها لوضع أدوات إعداد الطعام ولأوانيه فارغة، سلة الخضراوات ورفّ المؤونة خاويان، تنعزل في ناحيتهما بقية حبة فليفلة وحبة بندورة، لا وسائد ولا أغطية كافية، غطاء واحد لكلّ أسير، كأنّ ظلمة الليل كانت غشاوة على عيني، أو لعلّه الجوع والعطش اللذان عانيت منهما، طرقت كلمات الحقيقة والواقع أذني بصوت أبي مجاهد، فأحسست بالفراغ يجتاح كلّ شيء. تضاعفت عليّ علامات التعب والإرهاق التي كانت ظاهرة من البداية، فأفسح لي زملائي المجال

لقضاء الحاجة والصلاة، نصف الساعة الأولى في الغرفة كان حافلاً كأنّه أسابيع، فقد دار الحديث فيه عن الحرب منذ بدايتها، وعن يوم عشته كأنّه سنة، وصلتُ إلى نقطة الاستسلام للنوم، فاصطدمت بواقع آخر، لقد أحضرني السجان إلى غرفة ليس لي فيها فراش ولا غطاء، وقد رفض أن يزودنا بفراش وغطاء بعد أن طلبناها منه، تدبروا أمركم الليلة وغداً نعطيكم فراشاً وغطاء، بكلّ برود ولا مبالاة وبانعدام أدنى بوادر الحسّ الإنساني، تدبروا أمركم، هكذا كان جوابه؛ ولأنّنا شعب عظيم في تكوينه، راقٍ في تفكيره، وجد إخواني السبيل، لقد آثرني الأخ الحبيب نضال بلّوط على نفسه بفراشه وغطائه، وافترش هو سجادة صلاة على أرض الغرفة والتحف أخرى، سجادة الصلاة التي لن تقيه برد البلاط ليلاً، ولن تصون عظامه من قساوة الأرض، آثرني على نفسه إكراماً لأيام من العذاب حتى وصلت إلى هنا، تلفعتُ بإيثاره فشعرتُ بدفءٍ ما كانت لتجود عليّ بمثله بطانية السجن، هكذا الأخوة في الإيمان؛ تصنع الجمال من العدم، ويصبح الفقر إلى الحاجات المادية في سجن كهذا غنى في النفس، وثروةً في القيم والمبادئ.

السجن غير السجن الذي نعرف

جاء صباح اليوم التالي عجلاً بيقين يشبه شمسه، حدثتكم عما جال في خواطرنا ونحن نتصبر على ضيق تلك الغرفة في انتظار دخولنا إلى أقسام السجن، تأملنا أنْ نجد شيئاً من الهدوء والراحة والاستقرار، وحلمنا في ذلك الضيق أنْ نلقى الإخوان الأسرى في أحسن حال، وطمعنا في طعام جيد وشربة هنيئة، وانتظرنا التواصل مع الأهل بعد انقطاع أيام التوقيف القاسية في عتصيون، ورجونا أنْ تكون الأخبار التي سنتابعها أفضل مما تركناها، وتمنينا أنْ نقضي وقتاً طيباً في طلب العلم ومطالعة الكتب والتزود بالمعرفة، وتطلعنا إلى كسب الأصدقاء والاختلاط بأسرى من شرائح مختلفة يزيدون خبرة المرء ويفيدونه بمجرد اختلاطه بهم، وتواصله معهم، وتعرفه على تجاربهم.

جاء الصباح كئيباً حزيناً مثل وجوه الأسرى الذين سبقوني فعايشوا ما لم نكن نتوقعه، لقد حلّ الحرمان مكان المكتسبات، والعقوبات محل الإنجازات، والضيق بدل السعة، كأنّ ممحاة حركتها يد شريرة تناولت الزمن بطغيانها فطمست الماضي بتضحياته وآماله، وزرعت حاضراً مختلفاً عما كنّا نعرفه، ليس السجن الذي خبرته، لا أريد أنْ تفهم من قولي إنّ السجن كان جيداً من قبل، ولكنّه كان أقلّ سوءاً، أما الآن فكلمة سيّء لا تفي بالمعنى المقصود، الانتهاكات والتجاوزات تحدث كلّ لحظة، القمع وسيلة التعامل مع الأسرى، والتنكيل هو الشكل الوحيد للتواصل معهم في هذه الفترة، العقاب يوزع مجاناً ودون داعٍ، الممنوعات صارت أكثر من أنْ تحصر، الجدران تسجنك، والقيود المرتبطة بمزاجات السجانين تبني جدراناً أخرى لا تراها، وعليك أنْ تتحاشى الاصطدام بها وإلا نالك الأذى والعذاب.

انتهج السجانون استعمال القوة المفرطة، والإهمال الطبي شيءٌ مفروغ منه مع إدارة سجون تفعل كلّ هذا، ومع أطباء ذكرت لكم وصفهم من قبل، كما عملت الإدارة على إشاعة جو من الفتنة بين الأسرى وإثارة المشاكل، وتعمدوا قتل الشعور بالاستقرار عبر الاقتحامات المتكررة للأقسام والغرف. أتوقف هنا للحديث عن خطوات الإدارة وسياساتها العملية في تحقيق أبشع الفظائع، وفي التمكن من تغيير الواقع الاعتقالي للأسرى، وذلك في تفصيل الصفحات الآتية:

1. حلّ الهيئات الإدارية والتنظيمية وتفكيك قيادة الحركة الأسيرة:

سبق أنْ ذكرت لكم طرفاً من مكتسبات الحركة الأسيرة، وأنّ من أبرزها تشكيل قيادات منظمة وإدارات داخلية في السجون، وفي كلّ سجن على حدة، وفي كلّ قسم، وقد تمّ تشكيل هذه الهياكل لتسهيل حياة الأسرى داخل السجون، وتنظيم شؤونهم وترتيب أوراقهم، ولتحديد مسؤوليات الفرد وواجباته وحقوقه الفردية والجماعية، وللوقوف أمام إدارة السجون في موقف موحد قوي، ولتمثيل الأسرى في القضايا الحقوقية والمطلبية، وقد نجحت هذه الهيئات من كلّ الفصائل في مضاعفة الإنجازات والحفاظ عليها على مدى عقود من النضال أمام محاولات التملص والمراوغة من إدارات السجون المتعاقبة، وقد أشاعت هذه الهيئات جواً من التفاهم والتناغم الداخلي، وشكلت واجهة وحماية للموقف الخارجي للأسرى أمام سلطات السجون، عمل متكامل أشبه بعمل مؤسساتي مستقل وإدارة ذاتية.

اشتعلت الحرب في غزة، واشتعلت حرب أخرى في السجون، فمنذ الأيام الأولى للحرب اتخذت مصلحة السجون بإشراف وزارة الدفاع وعلى رأسها المتطرف إيتمار بن جفير Itamar Ben-Gvir قراراً بحلّ كلّ تلك الهيئات وإنهاء عمل الجهات الإدارية والتنظيمية للأسرى، وباشرت إدارة السجون تنفيذ القرار بحملة شعواء شملت كلّ السجون، فتمّ نقل كلّ قيادات الحركة الأسيرة وقمعهم إلى أقسام أخرى في السجن نفسه، أو إلى سجون أخرى، وتمّ عزل كثير منهم عن عامة الأسرى، وهكذا شاع جو من الفوضى وعدم الاستقرار، وأصبح كلّ أسير مسؤولاً عن نفسه، وتقع عليه مسؤولية اتخاذ القرار الذي يناسبه، وضاعف سوء الأمر دخول آلاف من الأسرى الجدد إلى السجون، وكثير منهم لم يَخْبَر الاعتقال من قبل ولا يعرف قواعد الالتزام السلوكي والوطني المعروفة داخل السجن، كلّ المفاهيم التي بنيت بوجود الهيئات الإدارية والتنظيمية نسفت، الاستقرار تحوّل إلى قلق، وانتشر الخوف من المجهول، وكثرت الاحتكاكات بين الأسرى، وأصبح اتخاذ القرار الجماعي مستبعداً وسط أهواء مختلفة وتناقضات مزاجية، لا يُلام الناس على هذا وسط كلّ تلك الضغوط والمعاناة، ليس اعتذاراً لتلك المواقف غير الجيدة ولكن محاولة لوصف الواقع، لقد انحرفت العجلة عن مسارها، وأمسى الجميع يتحركون في اتجاهات متعاكسة قصداً

أو دون قصد، انحلّ الحبل وانفرط عقد الجماعة، وصار سهلاً على إدارة السجون تمرير مآربها وتحقيق مبتغياتها، عرفوا كيف يفرقون الكلمة ويمزقون الصفّ، فنالت الفُرقة من الأسرى أكثر مما طمح إليه عدوهم.

هذا الوضع السوداوي القاتم لم يدم طويلاً، فسرعان ما عاد الناس في السجن إلى رشدهم الذي فقدوه بتحريض من السجانين، لم تعد هناك هيئات إدارية واضحة المعالم، لكنّ الأسير الفلسطيني الذي دخل السجن على خلفية وطنية مشبع بروح التضحية والاحترام، ومفعم بطاقة العطاء والخير، فتجدد اجتماع الكلمة حول شخصيات بعينها، فرضت احترامها على الجميع، شخصيات وطنية أو أصحاب مهارات إدارية أو تاريخ نضالي، أثبتوا بحضورهم الشخصي قيمة الإنسان والقدوة والقائد، فصاروا ملاذ الأسرى، وموضع ثقتهم، وصاروا عناوينَ لحلِّ المشكلات وتذليل الصعوبات، إنّها القيم الفلسطينية المغروسة في نفوس شبان هذا الوطن؛ حيث احترام الكبير وتقدير القامات، وإعلاء شأن العلماء وتوقير القادة.

لا أستطيع أنْ أقول إنّ الأمور عادت إلى شيءٍ قريب مما كانت عليه في هذا الجانب؛ فالتجاوزات والتحديات الفردية ظلّت قائمة، أمور كنّا ننكرها ونتجاوز عنها، عملت الإدارة على إذكاء نارها، ونشر الفتنة وزعزعة الاستقرار النسبي، ووجدوا بعض النفوس الضعيفة التي تستجيب دون وعي، فكان شعار هذه المرحلة وموعظتها الأكثر ترددا على ألسنة الأسرى قول الشاعر:

لا يصلحُ الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهّالهم سادوا
والبيتُ لا يبتنى إلا لهُ عمَدٌ ... ولا عمادَ إذا لم ترْس أوتادُ
فإنْ تجمّعَ أوتادٌ وأعمدةٌ ... لمعشر بلغوا الأمر الذي كادوا

وسط هذه الأجواء لم يخلُ الموقف من مبادراتٍ ومحاولاتٍ لاستعادة تنظيم الصفوف، وإعادة تشكيل الهيئات الإدارية والتنظيمية بشكل ما، لكنّ الإدارة سارعت في كلّ مرة ترصد فيها مثل هذه التحركات إلى قتلها في مهدها، بفرض العقوبات على المبادرين، ونقلهم خارج أقسامهم إلى أخرى أو لسجون أبعد، وجددت تدخلها المسموم في أوساط الأسرى بشكل أضرّ بهم وباجتماعهم كلّ مرة؛ عاد مشهد الفوضى الجزئية في بعض السلوكيات الفردية المرفوضة وإن كانت قليلة، الأمر الذي يمكن الحديث عنه لاحقاً.

2. الحرمان من كلّ المقتنيات ومصادرة كلّ الممتلكات:

ترافق مع تفكيك الهيئات وقمع القيادات هجوم آخر، مسّ هذا الهجوم كلّ ما كان لدى الأسرى في الغرف والأقسام، كلّ غرفة كان فيها مجموعة لا بأس بها من أدوات إعداد الطعام والأواني المخصصة لذلك، والأواني اللازمة لتقديمه فردياً وجماعياً، من صحون وأكواب وملاعق وغيرها، علماً أنّ جزءاً جيداً من هذه الأدوات يشتريه الأسرى بمالهم عبر (الكنتينة)، كما كان يمكن للأسير امتلاك بعض الأجهزة الكهربائية مثل المراوح، ويمكنه أنْ يشتري لنفسه أجهزة مثل الراديو والمسجلات وقارئ الأقراص، وسائل أسهمت في تخفيف المعاناة، ووفرت شيئاً من التسلية والترفيه، هذه الأجهزة بيعت للأسرى بأثمان باهظة أضعاف ثمنها الأصلي خارج السجن، بالرغم من ذلك كان الأسرى وذووهم يبذلون مدخراتهم للحصول عليها.

وقد ضمّ كلّ سجن غرفة غسيل عامة، فيها غسالات وأجهزة لتجفيف الملابس، ومع تعاقب الأشهر والفصول على الأسرى في معتقلاتهم كانوا يحتاجون إلى ملابس شتوية وصيفية، وكانوا حريصين على العناية بنظافتهم وتبديل ملابسهم باستمرار حفاظاً على سلامة أجسادهم وحرصاً على صحتهم، فكان الأهل يقومون بإحضار الملابس أيام الزيارات ويتمّ تسليمها لإدارة السجن التي تعمل على تفتيشها وإدخالها إلى الأسرى وفق شروط ومعايير ومزاجية القائم على التفتيش، هذه الملابس التي تعدّ حقّاً طبيعياً وأساسياً للإنسان أياً كان، بات وصولها للأسير نصراً، يحتاج إلى صيانته والحفاظ عليه، احتاج الأسرى في هذه الظروف إلى مكان يحفظون فيه ملابسهم التي لا يحتاجونها، مع تقلب المواسم عليهم من صيف وشتاء، إلى حين حاجتهم إليها لاحقاً، فخصصت غرفة في كلّ قسم لحفظها وتخزينها بشكل لائق يحفظها من التلف.

توفر كثير من لوازم الطعام والأغذية والمسليات في الكنتينة، من زيت وأرز وعدس وحمص وقمح، وبعض المعلبات مثل أسماك التونا، إضافة إلى شيء من الشوكولاه والبسكويت وأنواع من البذور والمكسرات، وغيرها من احتياجات تكاد تكون رمق الحياة والحدّ الأدنى الممكن لحياة كريمة.

في كلّ قسم من أقسام السجون وجدت بعض الألعاب وبعض الأدوات الرياضية، مثل لعبة الشطرنج والدومينو في الغرف، وطاولة التنس وشبكة الكرة الطائرة وكرة السلة، التي كان الأسرى ينظمون لها الأوقات ويحرصون على تنشيط أجسادهم

وعقولهم بلعبها، ومن أهم الأدوات أجهزة التلفاز، التي كانت تضمّ عشر قنوات تلفزيونية غالباً أو عدداً قريباً من هذا، منها اثنتان ناطقتان باللغة العربية محددتان من الإدارة، وقناة ناطقة باللغة الإنجليزية، وسائر القنوات باللغة العبرية، وكلّها تحت بصر إدارة السجون وباختيارها وبتحكمها الكامل.

قضى الأسرى عقوداً وهم يحصلون هذه المقتنيات، وبذلوا جهوداً كبيرة وهم يجمعون تلك الأدوات، وقدموا تضحيات وأنفقوا أموالاً، وتوارثوها بينهم، فمن يغادر السجن يترك أغراضه لمن بقي وراءه، لم يكن شيء من ذلك منّة من إدارة السجن أو عطية أو منحة، إلى أن أتى ذلك الصباح ذات سبت على الأسرى بوجوه سجانين مكفهرة من الغيظ، وحقد دفين يتفجر من الأعين والأفواه، فامتدت أيديهم إلى كلّ شيء، صودرت المقتنيات، وخربت الأدوات، وجمع كلّ ما كان لدى الأسرى وذكرته سابقاً، لم يبقوا شيئاً منه، أصبحت الجدران عارية، والغرف فارغة، والمخازن خاوية، والرفوف واسعة فلا شيء يشغلها، لم يتركوا للأسرى إلا ما كان عليهم من ملابس، حتى المكانس التي تنظف بها الغرف انتزعوها، وقوارير الماء البلاستيكية منعوها؛ لإجبار الأسرى على الشرب من مغسلة المرحاض، لم يتركوا للأسرى إلا أجسادهم المثقلة بالضرب الشديد، جردوهم من كلّ صور الحياة، وألقوهم في صمت المكان وبرده عزلاً مما كان لهم حقّاً وعلى سجانهم واجباً، هذا لو كان إنساناً، والشكّ في إنسانيته معلق على سلوكه، تحول إلى يقين، بعد أن أحرق كثير من تلك المصادرات، وصارت رماداً تذروه رياح يأس الأسرى من استعادتها، وهذا ما أرادوه فعلاً، لقد أضرمت فيها النار لكي يوصلوا رسالة إلى الأسرى أنّها لن تعود، سرقة وعدوان وتجبر واستكبار، أوصاف لا تكفي لرسم المشهد.

3. قيود وتضييقات معيشية وخنق حقوقي:

قد تبدو العقوبات المذكورة آنفاً مادية، والحقيقة أنّها أمور معنوية في صور ملموسة، فالأسير لا يحتاج تلك الأمور رفاهية أو بطراً وتزيداً، بل يحتاجها ليشعر بكرامة الإنسان، وكان من الأمور التي ثبتها حقوقاً لنفسه على مدى سنيّ المواجهة والكفاح أمور معيشية يومية، فمثلاً استطاع الأسرى تثبيت حقّهم في الخروج من الغرف إلى ساحة القسم؛ للتنزه خارج الجدران، وتنفس الهواء، ومطالعة السماء

من الصباح إلى العصر أو بعده بقليل، وفترات قليلة من العام تمتد الفورة إلى غروب الشمس، وذلك وفق مداورة وتناوب بين الغرف، أمور حرص الأسرى على تنظيمها وتحديدها فيما بينهم ليكون الحقّ جماعياً وعادلاً، لقد أطيح بهذا النشاط الروتيني المعروف لكلّ الأسرى في كل مكان على هذه الأرض، صارت الفورة ممنوعة، ولا يسمح بها إلا مدة ربع ساعة وليس يومياً.

الحقّ في الاغتسال والاستحمام شيء يبدو غريباً الحديث عنه، فهو حاجة طبيعية فطرية لا تحتاج إلى تقرير أو إعلان، لكن حتى هذه الحاجة خضعت للمراقبة والتحديد واستعملت وسيلة للأذى، بقطع الماء الساخن وتحديد الأوقات الممكنة لهذا الأمر، خصوصاً مع وجود أماكن الاغتسال خارج الغرف في آخر الساحة، بالرغم من إلحاح الحاجة الصحية إلى الاغتسال مع ازدحام الغرف، وفقدان الملابس التي يمكن تبديلها، ومنع أدوات النظافة الشخصية، وقد منع الأسرى من القيام بأعمالهم الشخصية مثل الغسيل، فتعرضت الملابس للاتساخ والتلف، وتحولت إلى واقعٍ مؤذٍ بالرغم من الحاجة إليه، فلا مجال لتبديل الملابس، تشبعت بالعرق والرطوبة نتيجة الإقامة الطويلة في الغرف المغلقة، وكون الأسرى لا يجدون غيرها للنوم فيه.

يختار الأسرى في سجن عوفر وغيره من السجون عدداً من بينهم، ممن يتقنون إعداد الطعام وطبخه، للعمل في مطبخ عام تصحبهم الإدارة إليه عادة، وتراقب عملهم فيه، إضافة إلى أنّ هذه الأطعمة كان يصار إلى إعادة إنتاجها في الغرف، فالإدارة تتحكم في أصناف الطعام في المطبخ الرئيس، لكن في الغرف يحقّ للأسرى التصرف، ووُفّرت الأدوات والأواني في زاوية من غرفة السجن وسميت مطبخاً داخلياً، فيه يتمّ إنضاج الطعام غير الناضج، أو إعادة تدويره لتقديمه بصورة أفضل، أو تحسين جودته وزيادة كميته، أمر يتفرغ له واحد أو أكثر من الأسرى في كلّ غرفة بناء على اتفاق بينهم، هذه الأمور كلّها منعت، لا مطبخ عام ولا داخلي، لا شيء من ذلك ممكن مع واقع المنع والمصادرة المستحدث.

نضال الأسرى كان متنوعاً، يتراوح بين المطالبات وخوض الإضرابات في حين، ويتصاعد ليأخذ شكل مواجهات محدودة أحياناً، ومن أساليب انتزاع الحقوق كان اللجوء عبر المؤسسات والحقوقيين والمحامين إلى المحكمة العليا الإسرائيلية؛ لإيجاد

منافذ لترسيخ الحقوق القانونية للأسرى، التي كفلتها المواثيق الدولية، ونصّت عليها القوانين والشرائع دون أنْ يطبقها الاحتلال، وقد تقرر مؤخراً في العقد الأخير أنْ لا يتجاوز عدد الأسرى في الغرفة الواحدة الستة، أمرٌ يتيح لهم مساحة أكبر في الغرفة التي تقرب من 25م^2، حجز قسم منها لدورة المياه، وزاوية لتجهيز الطعام. وظلّ الأمر كذلك حتى بداية الحرب، تحولت الغرف إلى مستودعات مزدحمة للبشر، وأصبح البرش زنزانة خاصة لكلّ أسير، واضطرّ بعض الأسرى إلى النوم على الأرض، فقد زجّ بـ 10–13 أسيراً في كلّ غرفة، على تفاوت الفترات وتزايد عدد الأسرى المعتقلين الجدد أو المفرج عنهم، ما يعني أنّ لكلّ أسير مساحة مترين مربّعين يعيش فيهما 23 ساعة من يومه تقريباً.

تمّ اعتقالي فجر يوم الجمعة 2023/10/27، وكان من أشدّ ما لقيته ذلك اليوم بما فيه من ضرب وتعذيب وإهانة، أنّني لم أتمكن من صلاة الجمعة، سابقاً كان الأسرى يجتمعون في ساحة القسم، يجتمعون من كلّ الغرف إلى الصلاة، يؤمّهم إمام واحد بعد خطبة كانت إدارة السجن تراقبها وتدقق في تفاصيلها، ويا لحسرتي ومرارة ما وجدت! كنت أظنّ أنّني حرمت من صلاة الجمعة يوم اعتقالي، وأنّني سأعود لأدائها كالمعتاد في السجن، لقد حظرت، بل مُنعنا من رفع الأذان وإقامة الصلاة للصلوات اليومية، ومنعت الصلاة بصوت جهري، وسمح بها في سجن عوفر بصوت خافت، أما سجون أخرى مثل النقب فقد حظرت نهائياً في بعض الأقسام برواية من أثق به، وعوقب من ضبط في أثناء صلاته بعذاب شديد كاد يزهق روحه، وسمح بها فردياً في أقسام أخرى ومنعت الجماعات مطلقاً.

تجاوز الأمر الاعتداء على الشعائر الدينية إلى مصادرة المسابح، تلك الحبات التي تشغل وقت الأسرى بالتسبيح والتحميد والتهليل، أجل، هي حرب على الدين الذي يصنع معجزات الصبر، ويقدم إمدادات الصمود، ويحفظ على المرء آدميته التي أراد السجان بتسلطه وغروره أنْ ينزعها منه.

اصطدم الأسرى بواقع آخر شديد المرارة، حيث لم يسمح لهم أن يتصلوا بالعالم الخارجي عبر منع زيارات الأهل حتى لحظة كتابتي هذه الكلمات، ومنعوا من زيارة المحامين أو مقابلتهم هم والمؤسسات الدولية المعنية بشؤون الأسرى مثل

الصليب الأحمر، وقد استطاع بعض المحامين عبر المحكمة العليا انتزاع قرار يسمح لهم بمقابلة الأسرى وزيارة السجون، فتمّ تقييد ذلك بفترات متباعدة، ومعاقبة الأسير الذي يقابله المحامي والتنكيل به عند خروجه لمقابلة محاميه وعند عودته إلى محبسه في غرفته.

الحرمان من أساسيات الحياة شمل الكهرباء، فقد منعت طوال اليوم باستثناء ساعات المساء من الرابعة إلى العاشرة، لم يكن لدى الأسرى أدوات كهربائية ليحتاجوا إلى غير الإضاءة، فالحرمان كان من الضوء، الضوء الذي لا يحتمل العقل البشري أن يكون وسيلة للعقاب ووجهاً من وجوه الحرمان، فالغرف مظلمة بسبب غلظ القضبان وضيق الفراغ بينها على النافذة الوحيدة في كلّ غرفة؛ لذا احتاج الأسرى إلى الإضاءة نهاراً، أمر لم يسمح لهم به، ومنعوا منه بصلف غريب على الطبيعة والفطرة.

وقد مسّ عدوان الاحتلال الكتب، فكلّ قسم من أقسام السجن ضمّ من قبل زاوية في إحدى الغرف العامة، توضع فيها خزانة للكتب، فيرتادها عشاق القراءة والمتلهفون إلى المعرفة والعلم، يقضون معها شيئاً من وقت سجنهم الطويل، ويثرون هذه الأوقات بالنفع والفائدة، أو بالمتعة والشغف بقراءة كتب الأدب والروايات، صودرت الكتب وأتلفت واعتدي عليها بوحشية وكأنّها عدو من أعداء السجانين، مشهد يذكر بصنع الغزو التتري وعدوانه على نور العلم في بغداد، هذه الهجمة امتداد لتلك، يحظر على الأسير أنْ يتصل بنور الحضارة وقبس الحياة العلمية والفكرية والأدبية، وعليه أنْ يعاني ظلام المكان وظلام النفس في آن.

ولكم أنْ تتخيلوا قدر الحرمان إذا علمتم أنّ أحذية الأسرى جميعها صودرت، وأعطي كلّ أسير نعلاً بلاستيكياً رديء الصناعة، يؤذي أكثر مما ينفع، لكنّه الخيار الوحيد المتاح، وهنا يتساءل الإنسان ببراءة وعفوية عن الدافع إلى العدوان على الأحذية وحرمان الأسرى منها، تفصيل كان ضرورياً لإكمال مسلسل القضاء على كلّ نبضة ممكنة للإحساس الطبيعي لدى الأسرى، وألم كان ينبغي أنْ يحيط بالأسرى من أعلى رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم، ومعاناة أراد لها السجانون أنْ تمسّ كلّ خطوة للأسير حتى داخل غرفته، أفعال تعجز الوحوش عن تصدير مثلها، فالوحوش مفترسة بطبعها، أما هذه التصرفات فلم يكن لها تبرير غير الأحقاد والضغائن.

4. الإهمال الطبي المتعمد:

كفلت كلّ الشرائع والقوانين للمرضى حقوقهم، وكانت هذه الحقوق أخصّ للأسرى المرضى، الذين تقع مسؤولية حياتهم وصحتهم على إدارات السجون، فمن حقّ أيّ مريض أنْ يتلقى العناية الطبية والرعاية الصحية، والمتابعات العلاجية؛ لكي يستكمل شفاءه وتعافيه، أمور كانت من أكثر القضايا إلحاحاً في مواجهات الأسرى مع إدارة السجون، حيث الإهمال والتفريط المتعمد بحياة الأسرى المرضى سياسة ممنهجة، ولم يسمح للأسرى بالحصول على العلاج المناسب في كثير من الأحيان، ويتمّ متابعة حالاتهم على فترات متباعدة على الرغم من خطورتها، ما يجعل أحوالهم تتردى وأمراضهم تتفاقم. وبعد 2023/10/7 ازداد الأمر سوءاً، وبلغ أقصى مدى في الانحطاط الأخلاقي عند الاحتلال، صار الإهمال الطبي وسيلة من وسائل الضغط وأداة تستعملها إدارة السجون لزيادة المعاناة، ولعلكم تسترجعون الآن ما كان عليه طبيب السجن حين حدثتكم عن دخولنا إلى معتقل عتصيون وسجن عوفر، فالحال التي كنّا عليها لم تكن بحاجة إلى خبير ليكتشف أنّنا بحاجة إلى مداواة، فقوبلنا بالتعامي وبدلاً من الدواء ومواساة الجراح والإصابات وجدنا العدوان. وسياسة الإهمال الطبي للمرضى داخل السجون شملت كلّ المراحل المعروفة طبياً، بدءاً في الحقّ بالمعاينة والعرض على الطبيب، وانتهاء بالحصول على العلاج المناسب، مروراً بإجراء الفحوصات والمتابعة اللازمة لرصد الحالة وتطوراتها، فحرم الأسرى من كلّ ذلك دفعة واحدة، بل إنّ الحرمان مسّ المسكنات الأساسية التي كانت الوصفة السحرية فيما قبل لمعالجة الأعراض والأمراض لدى الأسرى في كثير من الأحيان.

أما المشرف العام على صحة الأسرى والمتابع للمرضى في السجن فهو مضمّد، وهو شخص حاصل على دورة إسعافية أولية، لم يحصل على أيّ شهادة علمية، تقوم بتوظيفه إدارة السجون، و"المضمّد" هي الترجمة لاسمه العبري، وهو شخص لا يملك أيّ معرفة في مجال الطب والدواء، وبالرغم من ذلك كان النافذة الوحيدة والأمل الأخير لكلّ المرضى الكثر في السجن، الذين تزيد أعدادهم بسبب الظروف الاعتقالية، هذا المضمّد ليس طبيباً ولا ممرضاً، لكنّه الوحيد المتاح نظرياً في السجن، أما عند الحاجة إليه فهو غالباً غير متاح، فقد كنّا نطلبه لحاجة طبية، فيمرّ يوم واثنان وثلاثة ويمتدّ الانتظار دون أن يحضر، والمرضى أمام موقفين: إما أنْ يشفيهم الله سبحانه

بفضله قبل أنْ يحضر سيادة المضمّد، وإما أنْ تتدهور صحتهم فيصلوا إلى حافة الموت أو إلى معاناة شديدة لا تطاق، فيحضر المضمّد متذمراً متأففاً وكأنّه لا يجد وقتاً لحكّ رأسه من كثرة العمل الذي لا يقوم به، فيقف خلف الباب، ويعاين المريض بعينه الثاقبة عبر الشباك غليظ القضبان، فيقرر أخيراً التفضل على الأسير ببضعة أقراص مسكنة إذا كان الأسير ما زال قادراً على حمل خطاه أو الكلام، طبيب السجن الذي لا رجاء منه، والممرض الذي لا نذكر له صورة، لا يزوران الأقسام إلا نادراً، فعلى مدار عشرة أشهر قضيتها خلف القضبان لم يحضروا إلا مرات معدودة، وقد اكتشفنا أنّ حضورهم لم يكن من أنفسهم، بل بقرار المحكمة العليا بطلب من محامي أسير معين، تخيلوا أنّ زيارة الطبيب بحاجة إلى أنْ تحرج أكبر هيئة قضائية في دولة الاحتلال.

الحالات التي مرّت في أيام السجن كثيرة مستعصية، أحد الشباب عانى من الصرع، وانتابته بين الفينة والأخرى نوبات من الإغماء، فيحتاج معها إلى تدخل عاجل، الأصل أنّه يحتاج إلى دواء منتظم لحالته يحول دونه ودون الوصول إلى الحال التي يصير إليها، فالإغماء يهدد حياته، وقد تعرض للإغماء مرة فعاجل إخوانه الأسرى بطلب المضمّد القدير، بعد عجزهم عن إفاقته، فحضر بعد معاناة الطلب المتكرر، وقام بمعاينته من خلف الباب دون أنْ يفعل شيئاً، تكرر الأمر مرتين، فما كان منه إلا أنْ قال: "المرة الجاية لا تنادوني إلا لما يموت صاحبكم، عشان أجيب معي كيس أسود". لا يريد الحضور إلا للفّ جسد الأسير الميت بالكيس وإخراجه من السجن جثة هامدة!

وذات يوم خلال وجود ذلك الشاب في الفورة وقع في نوبة من الصرع وأغمي عليه، فقام السجان بإدخال الأسرى كلّهم إلى الغرف ثمّ استدعى هو المضمّد، دخل المضمّد إلى ساحة القسم ونظر إلى جسد المريض الملقى على الأرض بلا حراك، فانهال عليه صفعاً على الوجه، وركلاً بالقدمين دقائق عدة، حتى أفاق الأسير وهو لا يدري ما يدور حوله، فعاجله المضمّد بسيل من الشتائم والسبّ والاتهامات أنّه يمثل ويدّعي المرض، تكرر الموقف غير مرة، ولم يفطن ذلك المتوحش أنّ التمثيل لا يمكن أنْ يكون ثمنه كلّ هذه الاعتداءات الجسدية واللفظية، خصوصاً أنّ الأسير لم يجنِ من ذلك شيئاً ولو لمرة واحدة.

عانى أسير ثانٍ من إصابات بليغة نتيجة حادث سقوط عن دراجة نارية قبل سجنه، أصيب على أثره بكسور في الجمجمة، وأجريت له عمليات في الدماغ، وكانت ندوب الجراحات في رأسه ظاهرة للعيان، وبسبب تلك العمليات الجراحية وعدم استكماله

للعلاج بسبب السجن كان يتعرض هو الآخر للإغماء، وللأسف حدث له ذلك في الساحة في أثناء الفورة، هذه المرة اتبع الإجراء الأول بإدخال الأسرى جميعاً إلى غرفهم، لكن لم يستدعِ السجان المضمّد، استدعى الوحدة الخاصة بقمع الأسرى، التي دخلت إلى الساحة بهمجية، ووقفوا على جسد المريض المسجى على الأرض بلا حراك، وبدأوا بضربه وركله حتى أفاق من غيبوبته وألقي في غرفة سجنه، مصحوباً بالشتم وتهمة التمثيل، وتكررت الحادثة وأعيد المشهد مثله مثل مريض الصرع، إلا أنّ نصيبه كان استدعاء وحدة القمع، فقد يكون السجانون وصلوا إلى نتيجة أنّهم أكثر براعة وتخصصاً في الركل والضرب من المضمّد، عاقبوا الأسرى على مرض ليس بيدهم شأنه، وعذبوهم على عارض لا يتحكمون فيه، واتهموهم بالكذب والتمثيل وكأنّ الأسير الفلسطيني ممنوع عليه أنْ يمرض، أو أنْ يتألم، وكأنّه ليس بشراً مثل باقي الناس.

أسيرٌ ثالثٌ هزّ صراخه صمت المقبرة الجماعية التي ألقينا فيها ليل نهار، يشكو ألم بطنه الشديد، شهرٌ كاملٌ وهو يئنّ ويصرخ ويتلوى من شدة الوجع، وقلوب إخوانه تتلوى وتتلوع وتكاد أنفسهم تطير حزناً عليه وهم لا يملكون له نفعاً، عذاب جسدي له، وعذاب نفسي قاسٍ لمن معه، شهر وهو لا يعرف معنى الراحة ولا النوم، يشتد به الألم حتى يصرعه مغشياً عليه، فلا يفيق إلا بعد أنْ يستوفي الألم حظه منه، شهر كامل دون استجابة لندائه وعافيته تنسلي مع أعراض القيء والإسهال الدائمين، شهر أشرف مع آخره على الموت، وكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة، اضطرت إدارة السجن لنقله إلى المشفى، وهناك أجريت له جراحة عاجلة استئصل فيها معظم أمعائه، التي أصيبت بالتهابات حادة، كان يمكن تدارك حاله في أولها لو أنّه لقي رعاية منذ البداية وعولج بالدواء المناسب، وفوق ذلك، يسخر منه سجانوه وحراسه في المشفى: "كان يجب أنْ نتركك تموت في السجن، فعلاجك سيكلف مبلغاً كبيراً من المال".

أما الأسير عرفات ياسر حمدان من قرية بيت سيرا غرب رام الله؛ فقد استشهد بسبب الحرمان من العلاج، قُتل مع سبق الإصرار والتعمد، وبالرغم من إنذار إخوانه الأسرى وتحذيرهم لإدارة السجن بأنّ وضعه الصحي خطر ويستلزم عناية فائقة في المشفى، حدثني زملاؤه الذين كانوا في الغرفة نفسها معه عن ساعاته الأخيرة، بعد أنْ قدّر لي أنْ أجتمع بهم وقد نقلوا للعيش معي في الغرفة نفسها، إذ قام على العناية به زملاؤه، ومنهم الأسيران إيهاب القواسمي وفتحي الجولاني، اللذان حاولا أنْ

يساعداه على الصمود، بذلا كلّ ما بوسعهما لإنقاذ شاب في الـ 25 من عمره يترك لمصارعة مرض السكري دون دواء أو غذاء، أصيب عرفات بنوبة حادة من هبوط السكر، ما أدخله في غيبوبة مدة 24 ساعة، كان يصحو منها للحظات بمساعدة إخوانه، وهم يتناوبون على الصراخ والنداء على السجانين الذين صُمَّتْ آذانهم، أو أنّهم لا يعقلون ولا يفهمون نداء الإنسان للحياة، فاضت روحه الطاهرة تحمل عبقاً من أخوة الرفاق الذين احتفظوا بذكراه، وودعوه بدموع حرّى وقهر الرجال الذي استعاذ منه رسول الله ﷺ، رحل إلى بارئه بريئاً مظلوماً مقهوراً يشكو إلى الله ظلم الظالمين.

أستطيع سرد مئات المواقف والمشاهد التي تنطق وتجهر بجحود إدارة السجن للطب ورسالته الإنسانية، وتنكرهم لهذا الواجب عليهم، وتجاوزهم لأهم القواعد والقوانين والشرائع التي تحفظ حياة الإنسان مستعملة منع العلاج، لكنّ هذه الصفحات مكان ضيق، وحسبك من الأمر أنّ إفاقة المغمى عليه كانت تتمّ بالضرب، وأنّ زيارة الطبيب كانت بقرار قضائي عالي المستوى، وأنّ أمراضاً جلدية مثل سكابيوس (الجرب) انتشرت في معظم السجون وأخذت طابعاً وبائياً، فلم تشرع إدارة السجون بالعلاج إلا بعد التخوف على انتقال العدوى إلى السجانين، بل إنّ الدكتور أمجد الحموري الذي أصيب بهذا المرض احتاج للإضراب عن الطعام عشرة أيام وتعرض للقمع والتنكيل للحصول على العلاج من هذا المرض له ولإخوانه، وقد رفع قضية في المحكمة العليا الإسرائيلية للمطالبة بالعلاج عبر المحامي، حتى تمّ الإفراج عنه هو الآخر بعد عشرة أشهر من الاعتقال، وكان ما زال يعاني من أعراض ذلك المرض، فاستقبل أهله وأحبابه وزواره بحجر صحي وحذر خشية انتقال المرض إليهم، بدلاً من أنْ يحتضن عائلته وأحبابه وأصدقاءه بعد طول شوق وانتظار وحنين. هذا المرض الذي انقرض من بيئتنا ولا يسمع به أحد، لكنّ سياسات إدارة السجن بمنع الاستحمام أو تقييده، والحيلولة بين الأسرى وبين أدوات النظافة الشخصية، وحظر أدوات تنظيف الغرف ومصادرتها، واستعمال فراش وغطاء واحد دون تبديل، كلّ تلك الممارسات وغيرها هي ما أعاد هذا المرض ونشره، ما يستدلّ منه تعمد الإدارة وتقصدها أن يتفشى بين الأسرى، ليكون عذاباً لا يتوقف ليلاً أو نهاراً، مع أعراضه القاسية من تشقق الجلد وتفطره وظهور البثور عليه، والإحساس بتآكل بشرة الإنسان، وارتفاع الإحساس بالحرارة، ونوبات الحكة الشديدة التي تكاد تذهب بالوعي.

5. الاستعمال المفرط للعنف وللقوة غير المبررة في معاملة الأسرى:

انحصر التواصل قبل 7 تشرين الأول/ أكتوبر بين ممثلي الأسرى وقياداتهم وإدارة السجون، أما بعد ذلك اليوم فقد صار الاحتكاك يومياً ومباشراً بين كل أسير والسجانين، لتوفير حاجات الطعام وطلب العلاج والحاجات الأساسية لكلّ فرد بنفسه، الحساسية والتأهب سمات غلبت على تعامل الإدارة مع الأسرى، فيواجه أدنى تحرك وكلّ موقف بردّ قاسٍ وعنيف، فإنْ تحدث سجان إلى أسير وارتفع الصوت قليلاً نال السجن كلّه عقوبة الحرمان من الفورة، وأغلق القسم على الأسرى جميعاً، ثمّ تعاقب الغرفة التي ينتمي إليها الأسير بالاقتحام والضرب والتنكيل والعذاب الشديد لكلّ من فيها، دون رادع من إنسانية أو وازع من ضمير، عقوبات باطلة وظالمة لو كانت بحقّ الفرد، فكيف بها وهي تسلط على الجميع؟!

في أحد الأيام تأخر السجان في تشغيل الإنارة في الغرف، وقد تجاوزت الساعة الرابعة والنصف، وكما أخبرتكم فإنّ الإنارة حسب ما فرضته إدارة السجن تبدأ عند الساعة الرابعة، لم يكن أمراً مستهجناً أنْ يطلّ أحد الأسرى بصوته من إحدى النوافذ ليطلب هذا الحقّ المنقوص أصلاً، نادى ولا مجيب، ألحّت عليه حاجة الأسرى وسط ظلام المكان، فكرر الطلب مرتين أو ثلاثاً، ليأتيه الجواب بعد برهة باقتحام وحدة القمع للقسم، مدججة بالعصي والهراوات، وأسلحتهم مذخرة بقنابل غاز الفلفل، فتحوا باب غرفة الأسير الذي لم يطلب أكثر من فسحة نور محدود وضمن تعليمات إدارة السجن، أطلق الجنود قنابلهم عشوائياً داخل الغرفة، ثمّ قام عناصر القمع بتكبيل الأسرى جميعهم، وانهالوا عليهم ضرباً بالعصي والهراوات، وركلاً بالأرجل ولكماً بالأيدي حتى أدميت أجسادهم، وسالت جراحهم على الأرض، وكان معظمهم قد أصيب بجروح غائرة في الرؤوس والوجوه بفعل القنابل، وإمعاناً في الحطّ من قدر الإنسان عمل السجانون على نزع ثياب الأسرى ولم يبقوا لهم إلا الثوب الداخلي السفلي، ثمّ جرّوهم على الأرض أمام أعين الجميع خارج القسم، وألقوهم في زنازين العزل الانفرادي أياماً، عادوا بعدها مضرجين بدمائهم التي كانت ما تزال تنزّ من جراح لم تلتئم، دون أنْ يلاقوا أدنى علاج أو اهتمام، وممن أصيب في ذلك اليوم إصابة قاسية الأسيران: لؤي غيث، وأحمد غنيمات، وقد استمرت معاناة بعض

الأسرى مع جراحهم مدة شهر كامل، بالكاد الْتأمت بعدها، ولم تجد الرحمة سبيلها إلى قلوب امتلأت حقداً ونضحت كراهية وفاضت بالضغينة.

وفي ليلة 16 تشرين الثاني/ نوفمبر طاف سجان على غرف القسم الذي كنت فيه واحدة واحدة، وعند كلّ باب وقف ونادى أسماء مجموعة من الأسرى، وأخبرهم أنّ عليهم الاستعداد عند السادسة صباحاً لمقابلة جهاز الأمن العام الإسرائيلي (الشاباك) Israel Security Agency—ISA (Shabak)، هذه المقابلة هي استجواب عند ضابط المخابرات المسؤول عن منطقة سكن الأسير، عددت ليلتها 43 أسيراً من قسمنا، وفعلاً بدأت ضوضاء الاستعداد للخروج إلى المقابلات في الموعد المحدد، أخرج الأسرى واحداً تلو الآخر إلى ساحة القسم، وتمّ تكبيل أيديهم وأرجلهم بالسلاسل الحديدية المكتوب عليها "صنع في إنجلترا made in England"، الأيدي مقيدة إلى الخلف، والأعين معصوبة حتى إنّها لتكاد تغور من شدة الضغط، ثمّ تمّ جمعنا في زنزانة انتظار مساحتها نحو 16م[2]، وأضيف إلينا في تلك الزنزانة أسرى آخرون من أقسام مختلفة، صار عددنا سبعين رجلاً، كلّنا معتقلون إدارياً بعد الحرب، وأغلق علينا باب قبر الانتظار هذا ساعة أو أكثر، ضاقت الأنفاس وكدنا نختنق، وتبللت ثيابنا بزخات العرق وبخار الأنفاس التي تتصعد بصعوبة، حضرت بعدها قوات نقل الأسرى (النّحشون Nahshon)، المفترض أنّنا سننتقل من مباني السجن وأقسامه إلى مبنى قريب داخل حدود الأسوار المحيطة به، لكن وظفت تلك القوة العسكرية المسلحة للقيام بهذا العمل، وهي المخصصة للنقل خارجاً وإلى أماكن بعيدة، أجبرنا على خفض رؤوسنا أكثر مما يمكن لظهورنا أنْ تفعل، ودفعنا إلى السير واحداً تلو الآخر على تلك الوضعية، ومن يحاول الاعتراض أو رفع رأسه يتعرض لهجمة مسعورة من الضرب والاعتداءات، تقدمنا بخطى مترددة في مسارات لا نعلمها، وهم يحثوننا على الإسراع والحركة بالدفع واللكمات، وعندما نصل انعطافة أو تغييراً في المسار تصطدم رؤوسنا بالجدران، وترتطم بالزوايا الحديدية، تسيل الدماء وتزفر الآهات، هكذا حتى انتهينا إلى آخر الممر ووصلنا إلى حيث تقف البوسطة، البوسطة حافلة مجهزة لنقل الأسرى، تبدو جميلة المظهر حديثة من الخارج، لكنّها مكونة من ثلاثة صناديق حديدية داخلها، كلّ ما فيها حتى المقاعد من الحديد، الذي لم يصقل ولم تهذب صناعته، فكان حاد الأطراف فيه الكثير من الحواف والنتوءات المدببة، قسمت البوسطة إلى ثلاثة أقسام، قسم في المقدمة يضمّ عشرة مقاعد على

يميننا، وقسم فيه زنازين معزولة كلّ واحدة منه تستوعب أسيراً واحداً مخصصة للأسرى الذين يمنع اختلاطهم بغيرهم، وعلى يسارنا القسم الخلفي، ويضمّ مقعداً في المؤخرة بعرض البوسطة، وأمامه أربعة مقاعد مزدوجة، ساروا بنا حتى وصلنا إلى درج البوسطة المعدني ونحن ما نزال مخفضي الرؤوس، وصلنا دون أنْ ينبهنا أيّ شيء، حتى من حركتهم، أنّنا وصلنا، تعمدوا تمويه حركتهم لكي لا نفطن إلى وصول وجوهنا إلى موازاة درج البوسطة الحديدي، نالت الدرجات من رؤوسنا ووجوهنا، كسرت أنوف عدد من الأسرى، وامتلأت وجوههم بالسحجات والكدمات والجراح، أما من اصطدمت ساقاه بالدرج فقد كادت تتداعى عظامه من قسوة الصدمة، وبعض الأسرى سقط أرضاً، فساعده النّحشون على النهوض بهجوم كاسح بالهراوات والعصي لا يتوقف إلى أن يقف على قدميه محنيّ الرأس كما كان، ومن تمهل تفادياً لما شعر به من إصابة زملائه حثوه وعاجلوه بالضرب، يدفعونه دفعاً إلى أنْ يتعرض لما تعرض له كلّ الأسرى، أمامك في البوسطة ثلاثة خيارات بثلاثة أبواب بعد أنْ تصعد الدرجات، باب عن اليمين وثانٍ أمامك والثالث على يسارك، وحول باب الوصول إلى الدرج يقف النّحشون بعصيهم وهراواتهم يأمرونك مع الشتائم بالدخول، ولا تعرف أين تدخل، تدخل في لعبة التخمين والاحتمالات، وأنت ذاهل أصلاً عن كلّ ما حولك في وضعية يصعب المشي فيها لطليق اليدين والرجلين، فما بالكم بمكبلهما؟! أجد الآن مساحة لأسأل كيف تمكنّا من صعود درجات البوسطة، هل حملتنا أرجلنا المتوجعة أم انتشلتنا ملائكة من السماء؟ وأمام سخرية تنبعث نذالة من الجنود كان المحظوظ من يستطيع تخمين وجهته إلى اليمين أم أمامه أم إلى اليسار، قد ترتطم بباب مغلق يميناً وبآخر أمامك وتخلص إلى الباب على يسارك، يحاول الأسرى جهدهم في الاتجاهات قبل أنْ ينجحوا، وفي أثناء ذلك تَنوشُكَ العصي والضربات حتى توفق للدخول، وكان يمكن لكلمة واحدة أنْ تتجاوز كلّ هذا، لكن كيف تخرج تلك الكلمة من سجان يتلذذ بالضرب والأذى ويفتعل الأسباب لذلك!

تكدست مع ثلاثين رجلاً في القسم الخلفي للبوسطة، وهو المكان الذي يكون ضيقاً على 15 رجلاً، تكدسنا جلوساً ووقوفاً، أُطفئ مكيف الهواء، وعندما قلت لكم إنّ البوسطة تتكون من ثلاثة صناديق فهذه حقيقة، فلا نوافذ لها، أغلق الباب علينا، وبدأ الأكسجين يتلاشى شيئاً فشيئاً، العرق يتساقط كالمطر من جباهنا ويغمر وجوهنا، الحرارة ترتفع، أصبحنا مضطرين لاحتمال ثمن الضرب مقابل الهواء، نادينا على

الجنود بفتح الباب، نحن نختنق، نحن نحترق، ولا حياة لمن تنادي، عاودنا المحاولة دون جدوى، بقينا على هذا الحال نصف ساعة، ونحن نتصبر، ويشدّ بعضنا أزر بعض بكلمات الثبات والصمود ومواعظ الآيات والأحاديث، تذاكرنا المواقف وتداعينا إلى المصابرة، ووسط ذلك آهات وصرخات: "أنا أختنق، أنا أموت".

ساء الأمر أكثر وبلغت القلوب الحناجر، انهار بعض إخواننا مغشياً عليه، لم يكن له متسع ليسقط أرضاً، لكنّ قدميه خرّتا به بين الأقدام، دقّ الهلع القلوب بعنف، ظنّوا أنّ إخوانهم قد ماتوا، حاولتُ ملاحظة شيء حول من سقطوا، واستطعت أنْ أُطمئنَ الجميع، هو إغماء بفعل نقص الأكسجين والخوف، لا تقلقوا سيستعيدون وعيهم قريباً، وعدنا نهلل ونسبح ونرجع ما يعيننا على الصمود، وتراوينا قول عبد الله بن المبارك لأخيه الفضيل بن عياض رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا:

يا عابدَ الحرمين لو أبصرتَنا   لعلمتَ أنّك في العبادةِ تلعبُ

من كان يخضبُ خده بدموعِهِ   فنحورُنا بدمائنا تتخضبُ

استمر بنا هذا الموقف ساعة، حتى جاء صرير الباب بفرج يسير، انفتح الباب واندفع معه الهواء المضغوط المشبع بزفراتنا وآهاتنا خارجاً، وحلّ مكانه هواء جديد، كان كافياً لإنعاش آمالنا، واستيقظ إخواننا من إغمائهم بعد تجدد الهواء وتحت وطأة خطوات الأسرى الذين تدافعوا رغماً عنهم بفعل الضرب الذي رافق فتح الباب لمن كان نصيبه أنّه يقف قربه، ضرب استمر لدقيقتين، وأكسجين استنشقناه بلذة في هذا الضيق، نعمة لم نكن نشعر بها كما نحن في تلك اللحظات، الهواء الذي يمتلكه كلّ الخلق، البشر والحيوانات والنباتات والكائنات كلّهم يتنفس دون ثمن، أما نحن فدفعنا ثمن الهواء من أجسادنا ضرباً وأذى، حصلنا عليه لوقت محدود وتدفقت معه الأحقاد في هيئة عصي تضرب، وهراوات تبطش، وألسن تصرخ بقبائح الإهانات، رجونا لو أنّنا نتناوب على تلقي الضربات مقابل أنْ يستمر الهواء في التدفق، لكنّ ذلك غير ممكن مع وحوش كالذين تعاملوا معنا.

تحركت البوسطة بنا نحو مئتي متر، ثمّ توقفت، مسافة كان يمكننا أنْ نقطعها دون كلّ هذا العناء، بل لعلّ طابور الأسرى البطيء بالمسافة الفاصلة بين الواحد والآخر كان يمكن أنْ يغطي كامل المسافة، لكنّها رغبة الاستعلاء وغريزة العدوان التي تنحط بالبشر إلى هذا الدرك من الوحشية، عدنا للمشهد الأول، الباب مغلق

علينا بإحكام، الهواء يخسر أكسجينه، ونحن داخل الصندوق المقفل نراوح بين من يثبت إخوانه وبين من يضجر، نتقلب بين عبارات الحضّ وتقوية الصفّ وصرخات الهلع والخوف، ومع مرور الوقت أغمي على عدد من الأسرى تارة أخرى، وقضينا وقتنا هذا يسبح ويهلل، وذاك يضيق ذرعاً فيصرخ ويتأوه، وثالث يستحضر المواقف ويحاول تثبيتنا بالقول الثابت، ودونه من لم يطق صبراً وانتابه الجزع بخفقانه، ومع انتهاء الساعة الأولى تقريباً فتح الباب فانهمرت الضربات على من جاوره، ولا بأس بالضرب إذا كان سيجلب مقداراً من الهواء يمنحنا أملاً جديداً، مرّت ساعة بعد ساعة حتى أكملنا أربع ساعات ونحن على هذا النحو، نتنفس من لكمات إخواننا لدُقيقات، ثمّ نعود للاختناق بأنفاسنا المحترقة، التي ازدادت سوءاً كلما تقدم الوقت نحو الظهيرة، أربع ساعات أكملناها ليبدأ عددنا بعدها بالتناقص.

فُتح الباب فنادى الجندي علينا واحداً تلو الآخر، دار في ذهني أنّه الفرج، فرج كان أقصر مما احتجته من وقت لأفكر به، انقطع خيطه الدقيق وأنا أسمع صراخ أخينا الذي أخرج واستغاثته، وأسمع معها أصوات الضرب على جسده، ما الذي يحصل؟ ماذا يفعلون بإخواننا، استغرق الأمر ثلاث ساعات حتى عرف آخرنا بنفسه ما ذاقه أولنا من وبال ونكال، فإذا نودي على أحدنا أخرج من زنزانة البوسطة، ثمّ دفع من أعلى درجاتها، يدفع بعنف على الأرض؛ ليباشرها بجسده، فيداه مكبلتان إلى الخلف، وليس لديه ما يتقي به صدمة الارتطام، بعضنا سقط على كتفه، وآخرون على جنوبهم، وجماعة على وجوههم، يدفع الأسرى واحداً تلو الآخر بين صفين من الجند، يكملون ما بدأه الجندي الواقف أعلى الدرج، يسحبون الأسير من يديه المربوطتين إلى الخلف، ويضربونه ضرباً شديداً وهم يجرونه على الأرض، وهنا لا بدّ أنْ أخبركم بأنّ معظمنا فقد كنز البابوج البلاستيكي الذي أعطونا إياه بدل أحذيتنا المصادرة، ثلاث ساعات استغرقت فكر آخرنا ووجدانه بالقلق والترقب، حتى اجتمعنا على أرض ترابية كانت مهيأة لنا، فقدمت لنا حفلة جماعية من الضرب والعدوان، ثمّ بدأ إدخالنا إلى مكاتب ضباط الشاباك بالدفع والضرب والشتائم، ألم يتعبوا؟! لقد ضربونا بقدر كافٍ لأنْ يتعبوا، لكنّ شهيتهم إلى الغطرسة أمدتهم بطاقة شيطانية، وصلنا إلى مكاتب المقابلات مثقلين بأوجاعنا، ملونين بالكدمات، تسيل الدماء من وجوهنا وأطرافنا، حفاة وقد مزقت بعض ثيابنا.

داخل مكاتب المقابلة انتظرنا ضباط المخابرات، تعاملوا معنا بوجهين، فهناك من فكّوا قيود يديه وعاملوه بهدوء واصطنعوا له اللطف، وحاولوا دعوته إلى التعاون والعمل لصالح الاحتلال، سلوك انحصر في عدد قليل ممن ظنّ الضباط فيهم ضعفاً، أو حسبوهم بسطاء يمكن إغراؤهم والنفاذ إلى شخصياتهم الضعيفة، والأكثر واجه ما هو متوقع وما صار طبيعة لهؤلاء القوم في نظرنا، قوبل بالشتم بأقذع الألفاظ والأوصاف، وبالتهديد بالقتل أو النفي، أو بالبقاء في السجن سنوات طويلة، بل تجاوز الأمر في بعض الأحوال إلى ضرب الأسير وتعذيبه داخل المكاتب كما حصل مع الأسير عمرو أبو غوش، ثمّ يعاد الأسير بعد تلك المقابلات ويلقى إلى أيدي مجرمي النّحشون، الذين يجرونه ويلقونه في الساحة الترابية مع باقي الأسرى، ويرافقونه طوال الوقت بالركل والضرب ويذيقونه طعم عصيهم وهراواتهم، أمرٌ لا يقلّ عنه أذى كلاب بوليسية مدربة أطلقت في تلك الساحة، دُرّبت على مهاجمة الأسرى، فكانت كلما جاء أسير تنقضّ عليه بمخالبها، وتدكّ وجهه وضلوعه برأسها المغطى بقناع حديدي مدبب، يترك أثراً واضحاً في وجه الأسير وجسده، وفوق ذلك ينصب اللعاب من أفواهها كأنّه شلال قذارة لا ينضب، اجتهدوا في أن تكون كلّ التفاصيل عذاباً وأذى وإهانة.

المستهجن الذي لا يمكن تقبله ولا تصوره؛ تعمد إيذاء أصحاب الضعف والشيخوخة، كان بيننا ذلك اليوم أسير أنّ وصرخ من آثار عملية جراحية أجريت له حديثاً قبل اعتقاله بأيام، جرحه لم يلتئم منها بعد، وما زال ينزّ دماً وقيحاً، اشتكى ألم جرحه، علا صوته، فعالجه الجنود بالضرب في موقع الألم، وبالغوا في ضربه حتى كاد جرحه ينفتق من جديد، وكان في خلدنا أنّهم ربما يستثنون أصحاب الشيبة من أفعالهم الدنيئة، فهذا مما يفطر الناس عليه، غير أنّ الواقع كان خلاف ذلك، فقد زادوا في التنكيل لهؤلاء الرجال، وتسلطوا عليهم بالضرب والإهانات، وقد سمعت أنّ الأخ الحاج نبيل النتشة (أبو نعيم) قد عُذّب عذاباً مضاعفاً، وأنّهم اشتطّوا في التمادي عليه، أقنعة تستروا وراءها سقطت، وبدت سوأتهم لتعلن حقيقتهم التي هم عليها منذ أن كانوا، فلم يبقوا شيئاً من الحرمات إلا انتهكوه، ولا باباً من أبواب النذالة إلا طرقوه، فلا حسيب على أفعالهم في هذه الدنيا ولا رقيب.

الساعة الآن قرابة السادسة، بدأ مشوار العودة إلى السجن، تمّ تحميلنا في البوسطة تباعاً بالجدول الصباحي نفسه، ضرب وتنكيل إلى أنْ تصل، تصطدم بالدرجات مكتوف اليدين إلى الخلف مكبل الرجلين معصوب العينين، الحال ذاتها منذ الصباح، تصعد الدرجات، تنال نصيبك من الدفع والركل، وتعود إلى دوامة احتمالات الباب المفتوح، أغلقت الأبواب على زحامنا، مرّت ساعة من الاختناق والمعاناة، لم يختلف شيء، إلا أنّ الأذى تعمق أثراً، فالجسد الذي كان يحتفظ بطاقته في الصباح استفرغ جهده ووسعه الآن، وصار من الصعب عليه الإحساس بالألم لكثرة ما تألم، إنّه يتداعى إلى السقوط في الهاوية، ثمّ إنّ الضربات صارت تقع على ضربات قبلها، فلم أكن أعلم هل أتألم من ضربة الآن أم من يقظة ألم سابق، الانهيار التام كان وشيكاً، لولا بقية الإيمان وتعلق الروح بخيط رفيع مفرد من الأمل أنّ هذا اليوم سينتهي، وصلنا إلى مباني السجن، وأودعنا مرة أخرى في زنزانة الانتظار في ازدحام كان لطيفاً إذا قابلناه بما كنّا عليه في البوسطة، كانت القيود قد نالت من أيدينا وأرجلنا نصيبها هي الأخرى، أحسّ كثير منّا بيديه مقطوعتين، وسالت الدماء من أرجلنا، قليل منّا من نجا من كسر أو نزيف وإنْ لم ينجُ من كدمات وسحجات وندب ظاهرة، وجاء فرج رباني آخر، لقد حلّوا قيودنا، فأحسسنا بطاقة من الحياة تتدفق فينا، وروح من الحرية تتجدد، مكثنا في القيد أكثر من 14 ساعة، فأحسسنا أنّ تخلصنا منها الآن خطوة إلى الأمام، وجدنا فرصة لنعيد التعرف إلى أجسادنا بتحسس مواطن الألم، تفحص بعضنا بعضاً، وتعارفنا في ذلك الموقف وتحدثنا عن لحظاته، وما نال كلّ واحدٍ منّا، وراجعنا معاً مقابلات الضباط وما أرادوه منّا، اختلطت المشاعر في تلك الساعة، منّا من بكى شكراً لله على النجاة مما هو أعظم، ومنّا من تندر على نفسه وما أصابه في سبيل الله فضحك وأضحك من حوله، ونحن في كلّ ذلك نحسّ بسعادة غامرة وكأننا بعثنا من القبور للتو وعدنا نستنشق هواء الحياة.

صلينا ذلك اليوم صلاة لا يكاد يعرفها الناس، هي مودعة في كتب الفقه يعرفها قلة من أهل الاختصاص، فلا ماء للوضوء، ولا تراب للتيمم، وإنْ وجدَ التراب فلا وسيلة لاستعماله مع الأيدي المقيدة إلى الخلف، ومنعنا من أداء الصلاة، فما كان منّا إلا أنْ صلينا صلاة فاقد الطهورين الماء والتراب بلا وضوء ولا تيمم، جمعنا صلاتي الظهر والعصر وقصرناهما، أما كيفية الأداء فقد تفاوتت بين من استطاع

أنْ يومئ بجسده متحدياً، ومن لم يستطع إلا الإيماء بجفنيه، وأولئك فريق ارتخت عصابة عينيه شيئاً يسيراً، فأتاحت له القدرة على ذلك بخلاف الآخرين، وبعضنا كان قلبه وسيلته للإيماء، لست هنا لأناقش الآراء الفقهية حول هذه الصلاة وحكمها، ولكن لأقول إنّنا حوصرنا حتى في أقدس المقدسات، ولعلّي أجد فضاءً للحديث عن فقه السجون في صفحات أخرى إن شاء الله.

دخلنا أقسام السجن وغرفه عند التاسعة من مساء الخميس الموافق 2023/11/16، رجع كلّ واحد منّا بغنائم من الأجر والثواب احتسبها عند الله، وبقلوب مملوءة باليقين بالله والتسليم له سبحانه، نحسّ أنّنا بدأنا من جديد، عدنا مضرجين بدم كثير نزف منّا، وبجراح غائرة وخدوش ممتدة، وكسور في الأطراف والضلوع والأنوف، تركنا بلا علاج أو دواء حتى منّ الله علينا بالشفاء والعافية بعد أيام طالت أو قصرت، في النهاية ذهبت وانقضت محنة ذلك اليوم، وظلّت ذكراها محفورة في عقولنا وفي علاماتٍ بقيت على أجساد بعضنا، تشهد لنا عند الله ونرجو بها أن نكون قد أعذرنا في نصرة الحقّ، وأنْ نكون ممّن بذلوا ما أمكنهم لنيل رضوان الله واستحقاق ثوابه، هكذا كنّا، وكذلك كان إخواننا في سجن عوفر كلّهم أو معظمهم، فمثل اليوم الذي قضيناه في ذلك العذاب الأليم قضاه معظم من دخلوا سجن عوفر، سبقنا أو تأخر عنّا، الكلّ ورد تلك المهلكة ممن دخل السجن حتى نهاية سنة 2023.

الأكثر قسوة في الواقع أنّ بعض مواساتنا جاءت من شدة عذاب إخوة آخرين لنا، فالأنباء التي قدمت إلينا من سجن النقب الصحراوي مع بعض المنقولين إلينا من هناك جاءت بالفواجع، هناك حيث الضرب أكثر قوة، والاقتحامات أشدّ عنفاً، والتعذيب أعمق أثراً، هناك حيث الضنك يومي مثل وجبات الطعام، والأذى صار واقعاً معاشاً لا طارئاً سوف ينقضي. وأسوأ من ذلك كلّه حال إخوتنا المعتقلين من غزة، فالقسم 23 في سجن عوفر كان مخصصاً لهم، وقد حملت لنا أصواتهم التي لا تنقطع ليلاً ولا نهاراً عذابات لا تحتمل، وآلاماً لا تنقطع، لقد وشت آهاتهم بالحقائق، وأفشت صرخاتهم عما دار خلف تلك الأسوار، وحملت إلينا التسريبات النبأ العظيم عن هول الفاجعة وعظيم المصاب، كان الله في عونهم، وحفظهم ونجاهم مما هم فيه من شديد الكرب وعظيم البلاء.

6. صناعة حالة دائمة من عدم الاستقرار المعيشي والنفسي للأسرى:

اتبعت إدارة السجون الصهيونية سياسة ممنهجة لإدخال الأسرى في جو من الكآبة والإحباط النفسي، ولجعلهم في اضطراب دائم، يسهل التعرف على هذه السياسة دون عناء تفكير أو تأمل طويل، فهي ظاهرة تنطق عن نفسها بصوت واضح جلي في كلّ ما تفعله الإدارة، وما ستفعله مع تطور الحياة الاعتقالية كلّ يوم، تصرفات لها معنى واحد هو أنّ الأسير الفلسطيني ممنوع من الشعور بالاستقرار الشخصي، أو الارتياح النفسي، أو الانتظام المعيشي والتصالح الداخلي، وقد تمكنت الإدارة من ذلك بعد سيطرتها على كلّ مقدرات الأسرى ومواردهم، وبعد المصادرة الشاملة لكلّ شيء وفي مجالات العيش داخل المعتقل كلّها، أمسكوا بخيوط كلّ شيء، وقد تحدثت من قبل عن تحكمهم بأمور مثل الضوء أو الهواء في ظروف خاصة، تفاصيل كثرت فيها الممنوعات حتى كأنّه لا مباح، وتسلط مطلق على كلّ شيء، أخضعت قواعده لرغبة سجان أو اثنين، ومن يتجرأ ويثور على هذه الأنظمة الظالمة سيعاقب؛ ولكي يكون ثمن التجاوز، من وجهة نظرهم، باهظاً فرضت العقوبات الجماعية التي تردع الإنسان عن الثورة خوفاً على زملائه وإخوانه الذين سيعاقبون مثله.

التحكم بالطعام كان جزءاً أساسياً من سياسة القرصنة على أساسيات حياة الأسرى، والتدخل في أدقّ تفاصيلها، طعام سمي بهذا الاسم لأنّه ما حفظ حياتنا وأبقى على رمقنا، يفتقر في نوعه وكمه وجوهره إلى هذه الصفة، فهو أقل من أنْ ينفع، وأهم من أنْ يترك، لا أقول ذلك الآن تسخطاً بل وصفاً لواقع ذقنا مرارته وعشنا قسوته.

كانت وجبة الإفطار نحو خمسين جراماً من اللبنة، ووجبة الغداء سبعَ ملاعقَ من الأرز غير الناضج، مع ملعقتين من الحمص المطحون، وملعقتين من العدس، قيل لنا إنّها مسلوقة، والحقيقة أنّها ربما تكون مرّت فوق النار في قدر دون أنْ تمكث فيه طويلاً، فما ذنبها أنْ تسلق مدة تنضجها لأجلنا؟ أو لعله الاقتصاد في الطاقة المستعملة لطبخها، إضافة إلى ربع حبة من الخيار وربع حبة من البندورة.

أما العشاء فيتغير من يوم إلى آخر، ملعقتان من سمك التونا المعلب، أو شرحة من الحبش القاسي الذي صمد أمام حرارة الطبخ فاحتفظ بقوة أنسجته، أو شرحة من

الشنيتسل، أو أربع حبات من الفلافل، أو قطعتان من النقانق، مع بيضة مسلوقة، وربع حبة من الفليفلة، وربع حبة من الخيار المخلل.

هذا الطعام الشهي الوافر افتقر إلى عنصرين اثنين، عدا عن تحديه فكرة النضج واحتفاظه بصفات الطعام النيء فإنّه افتقر إلى الملح والسكر؛ لذلك كان الأسرى يغتنمون فرصة دخول الخيار المخلل إلى الأقسام ليتشاركوا في مائه المالح؛ لإضافته إلى الطعام تحسيناً لطعمه، ونصيب كلّ غرفة تضمّ 12 أسيراً كان كأساً بلاستيكياً من ذلك الماء، لا يتجاوز مئة مليجرام، وقد اقتسم الأسرى ماء نقع النقانق، لما يذوب فيه من أملاح وشيء من نكهة البهارات، وبعض الأسرى حرص على شرب ماء سلق البيض؛ لما فيه من ملوحة وكلس، وحصة الأسير اليومية هي عشر شرائح من الخبز لا تكاد تحس بوزنها، أقدر أنّ ما كان يدخل جسم الأسير من السعرات الحرارية بـ 1,500 سعرة، معظمها من البروتين ثمّ النشويات وقليل من الدهون، مع غياب تامّ للفواكه والعصائر والسكريات، النتيجة ظهرت واضحة على أجساد الأسرى، بل شاع استعمال صور الأسرى المفرج عنهم مع عبارة قبل السجن وبعده؛ لما كانوا عليه من هزال وضعف ظاهرين، الشحم على أجسادهم لم يصمد أكثر من شهرين، ثمّ بدأت الكتلة العضلية بالتآكل والتناقص، فبرزت العظام، وغارت العيون، وتغيرت الملامح، وتراوح فقدان الأسرى للوزن على مدى عدة أشهر بين 10–40 كغ، هذا تبعاً لوزنهم قبل دخول السجن، ويمكن القول إنّ متوسط خسارة الوزن في صفوف الأسرى 30 كغ، وهذا نقص يكفي لإحداث تغيير جذري في صورة الإنسان وهيئته.

المساس بتغذية الأسرى وطعامهم تطور وفقاً لرغبة الاحتلال، ووفق مزاج الإدارة ورؤيتها وكان وسيلة من وسائل العقاب والضغط المتواصل على الأسرى، وبناء على التزام إدارة السجن الديني، لقد تفاجأنا بتغير ملموس وحادّ في نوعية الطعام وكميته مع حلول عيد الفصح اليهودي نهاية شهر نيسان، فتمّ منع إدخال الخبز نظراً لتحريم الخبز المخمر في الشريعة اليهودية في أيام الفصح، واستبدل بخبز هو عبارة عن طحين معجون بالماء رقيق كالقشور، يابس كأنّه جفف تجفيفاً ولم يخبز، يسميه الأسرى "قراقيش" وأوقف إدخال أصناف الطعام المختلفة، وتكونت وجبة الطعام من أربع إلى خمس حبات بطاطا مسلوقة لنزلاء الغرفة الـ 12، يتقاسمونها بينهم فلا تسدّ رمقهم، ولا تغني من جوعهم شيئاً، أيام حالكة لم تنقضِ بأسبوع الفصح بل

استمرت لـ 12 يوماً، أصاب فيها الهزال المضاعف أجساد الأسرى، وصار الواحد منهم بالكاد يحمل خطاه، يقف فيصيبه الدوار، يتحرك أو يمشي فيشعر بالوهن، حتى التزم بعض الأسرى أبراشهم لضعف القدرة على الحركة، ولكي يحتفظوا بما تبقى في أجسادهم من طاقة لكفاية حاجاتهم الأساسية، مرارة الحرمان هذه المرة امتزجت ببشاعة الإكراه على شعيرة دينية لا تؤمن بها.

فوق ذلك كلّه؛ فقد فسد الطعام مرات عدة قبل أن يصل إلى الأسرى، ما تسبب بحالات تسمم جماعي لأقسام السجن كلّها، وينبغي أن أذكر بأنّ هذه الحال السيئة والوصف لوضع الطعام المزري يقتصر على سجن عوفر، فما سمعناه من شهادات وما عرفناه من معلومات عن سجن النقب وعن أسرى غزة يقشعر له البدن، فهناك الكميات أقل، والنوعية أسوأ، والإهمال أكثر، هذا حين يقدم الطعام للأسرى، حيث واجهوا فترات متقطعة من الحرمان الكامل منه، وقد تبرز شهادات أكثر نضجاً واكتمالاً وبمعلومات دقيقة حول تلك المعتقلات.

النقل من أبرز وسائل الحرب على الاستقرار التي شنّتها إدارة السجون، فبعد أنْ يحطَّ الأسير رحاله في غرفة ما، ويأخذ بالانسجام مع إخوانه فيها، ويعتاد عليهم ويعتادون عليه، ويفهم طباعهم ويتآلفون معه، ينقل إلى غرفة أخرى، فجأة ودون سبب أو مقدمات، وربما ينقل خارج القسم إلى قسم آخر في السجن نفسه، والأصعب أنْ يكون النقل إلى سجن آخر من السجون المنتشرة على خريطة البلاد من الشمال إلى الجنوب، حيث هناك الرحلة الطويلة التي تمرّ بمحطات وتوقفات تحت حراسة جنود النّحشون غلاظ القلوب، رحلة من المعاناة يصحبها التنكيل والإرهاق والإرهاب.

يشهد على سياسة بثّ الاضطراب ومنع الاستقرار ما قامت به الإدارة من مصادرة لكلّ مقتنيات الأسرى الشخصية، وأهمها الملابس، وبعد ذلك عمم منع انتعال الأحذية فتمّ جمعها من الأقسام ومصادرتها، وألزم الأسرى بالبابوج البلاستيكي الذي ذكر من قبل، ثمّ منعت ممارسة الرياضة حتى الخفيفة منها، سواء أكان ذلك في الفورة قصيرة المدة، أم داخل الغرف، ثمّ صدر قرار بمنع الحلاقة فصودرت كلّ الشفرات المخصصة لها من الأسرى، وحرمنا بعد ذلك من امتلاك سلاح استراتيجي هو مقص الأظافر، هجوم على أدوات النظافة الشخصية، تعمداً لزيادة مسببات الأمراض، ومنعاً لعوامل الراحة النفسية. ومنع استعمال المرآة فنفذ الأمر بمداهمة

كلّ الغرف والحمامات وإزالة المرايا منها، وفي إحدى التفتيشات أخبرونا بمنع استعمال القوارير البلاستيكية لشرب الماء وقاموا بسحبها جميعها من كلّ الغرف، فلجأ الأسرى إلى استعمال القوارير التي كان يأتينا فيها اللبن، سعة الواحدة منها 250 ملل، حيث نظفت بعد إفراغها واحتفظنا بها للشرب أو لوضع الطعام فيها بدل الأواني، ولاحظت الإدارة استفادتنا منها وتأقلمنا على الوضع الجديد دون قوارير الماء والأواني المصادرة؛ فمنعوا هذه العلب وصادروها هي الأخرى من بين أيدينا.

صودرت المسابح، ومنع استعمالها، ومنعت كلّ وسائل التسلية من دومينوز أو أوراق اللعب (الشدة) أو الشطرنج، فقام بعض الأسرى باستعمال الكرتون المتبقي من ورق الحمام لصناعة بطاقات الشدة والدومينوز، فنالت هذه الوسيلة البدائية العقاب، تمّ منعها وصودرت، والغرفة التي كان يضبط فيها شيء من هذا، خلال التفتيش المتكرر، تعاقب بمنع الفورة والإغلاق أسبوعاً كاملاً، تشجع أحد الأسرى وسأل مدير القسم يوماً، لماذا تصادرون هذه الأشياء التافهة مثل الألعاب المصنوعة من ورق، وتمنعون أشياء بسيطة مثل المسابح والأمشاط؟ هل تخشى "دولة إسرائيل" من مشط في يد أسير؟ أم أنّ هذه الأشياء تشكل تهديداً أمنياً؟! فردّ عليه مدير السجن أنّه فعلاً لا تؤثر على الأمن، ولا تشكل أيّ نوع من الخطر، لكن هكذا هي الأوامر، جواب أظهر لنا أنّ ما عشناه ويعيشه الأسرى ليس ممارسة فردية، بل سياسة متبعة تحددها وتشرف على تنفيذها أعلى المستويات.

أذكرُ أنّ أحد الأسرى طلب من السجان يوماً قشاطة لينظف بها ساحة السجن، فرفض وتعذر بغياب مدير القسم، وأنّه لا يستطيع إدخال قشاطة إلى القسم إلا بأمر من المدير، فهذا من صلاحيته وحده، فتساءل الأسير باستغراب ودهشة لا يخلوان من السخرية والتهكم: "هل القشاطة بحاجة إلى مدير؟!" وصار هذا السؤال مفتاحاً للفكاهة بين الأسرى ونكتة يتندرون بها بين بعضهم بعضاً، وشرّ البلية ما يضحك، ولقّب مدير القسم بين الأسرى بـ"مدير القشّاطات".

كان النوم شيئاً من المستحيل الحصول عليه بشكل صحي مريح، فسلوك الإدارة والسجانين يمنع من الاستغراق فيه، أو الإحساس بالراحة والسكينة في أثنائه والاستسلام لنوم عميق، وأطول مدة يمكن أنْ يرقد الأسير فيها تصل إلى ثلاث ساعات، فالحياة اليومية للأسرى مرتبطة بالإدارة وسلوكها ومتطلباتها، تبدأ هذه

المتطلبات بـ"العدد"، هكذا اسمه المتداول بين الأسرى، وهو إحصاء للأسرى داخل كلّ غرفة وقسم ومطابقة الأعداد مع سجلات الإدارة، حيث يدخل عدد كبير من السجانين يقودهم أحد الضباط والأسرى جلوس جميعاً في آخر الغرفة جاثين على ركبهم، وهكذا في كلّ مرة، قد يكون العدّ رقمياً أحياناً، وقد يكون بالمناداة على الأسماء وألقاب العائلات أحايينَ أخرى، والعدد وسيلة من وسائل الإخضاع بروتين ملزم للجميع، تمتلك أمره الإدارة وهي من يحدده، وبناء عليه تتحدد أنشطة كثيرة أخرى.

تبدأ حياة الأسير بالعدد الصباحي عند الساعة الخامسة، كنت أعود بعدها لاستكمال النوم المتقطع طوال الليل، أستيقظ عند الساعة السابعة، أنتظر دور غرفتنا في الفورة، ويمعن سجانو الاحتلال في اللعب بحياتنا بتحكمهم بالدور للخروج إلى الفورة، فهو دور عشوائي غير متسلسل خاضع لأهواء ذلك السجان، لا تستطيع معرفة دور غرفتك فتظلّ منتظراً موقوفاً على الانتظار، هل سيكون دورك صباحاً أم بعد الظهر أم مساء؟ لا يقين ولا تخمين، فالأمر لاحق لما يريد السجان لا لما يريده أيّ من الأسرى، من الساعة 11 وحتّى 12 ظهراً يكون القسم مغلقاً من أجل العدد الثاني، الخروج إلى الفورة موزع على مدار ساعات النهار من السابعة حتى الثالثة تفصلها ساعة العدد الثاني، تغلق الغرف بعد الثالثة وينتظر الأسرى العدد الثالث، الذي ليس له وقت محدد بساعة معينة، فهو ممكن من الساعة الخامسة إلى الثامنة، لا ينسى السجانون حرمان الأسرى من الضوء فتقطع الكهرباء عند العاشرة، تحاول النوم لكن عبثاً، فبعد هذا التوقيت سيطوف السجان على كلّ الغرف تباعاً، يشعل الضوء من الخارج، يقوم بعدّ الأسرى النائمين، ويحلو له أن يحادث زميله البعيد عنه خارج القسم، فيكون حديثه صراخاً يوقظ النائمين، أمر يتكرر كلّ يوم، فهو سلوك يومي لا عمل عفوي أو نتاج صدفة، وقد ينادي على الأسرى داخل الغرفة، يطلب كشف أحدهم الغطاء عن وجهه، أو يسلط مصباحاً يدوياً حادّ الإشعاع على أعين لا تكاد تشعر براحة النوم، ومرة بعد مرة يصبح التنبه والقلق سمة لنوم الأسرى، وتبرمج ساعاتهم البيولوجية على روتين جولة السجان المزعجة، خرجت من السجن، وأكتب هذه الكلمات بعد أسبوعين، وما زلت عاجزاً عن الاستغراق في النوم، وأطول مدة حظيت بها بنوم متواصل هي ثلاث ساعات، سياسة تزرع القلق، وتهيج الجهاز العصبي وترهقه، وتجعل الإنسان في توتر دائم، وتمنعه من الإحساس بالسكينة، حتى النوم الهادئ ممنوع.

أقرر الآن التوقف عن كتابة المزيد حول سياسة الإدارة في منع استقرار الأسرى معيشياً ونفسياً، أخشى أنْ يتسرب هذا القلق إلى القارئ، فالمواقف كثيرة، والشواهد أكثر، غير أنّ ما ذكرته يكفي لتعلم أخي أنّ ما يعانيه الأسرى أكبر مما تستطيع الكلمات نقله، وما هذه السطور إلا شهادة قد تفيد في حفظ مرحلة لن ينساها ضمير الإنسانية ووجدان البشر زمناً طويلاً.

7. إثارة الفتنة والاندساس من شرخ الانقسام الفلسطيني الداخلي:

يتكون النسيج السياسي الفلسطيني من فصائل عدة متباينة الخلفية والمنطلقات الفكرية، فمنها ما هو إسلامي الوجهة والمنهج، ومنها ما هو وطني المسار والفكرة، ومنها ما هو يساري الأيديولوجيا والعمل، تنوع أثرى الحركة الوطنية الفلسطينية في فترات الوحدة، لكنّه تحول إلى كابوس مزعج في الواقع السياسي الفلسطيني بعد أنْ انقسمت الفصائل إلى تحالفات وتيارات كبيرة، أساسها اختلاف الرؤية والمنهج والسلوك لتحقيق الغاية، التقط الاحتلال هذه الفرصة دائماً وحاول تغذية الانقسام وتعميقه، مستنداً إلى تصرفات مرفوضة كلياً عند أطياف الشعب الفلسطيني تقوم بها فئة محدودة، الانقسام لم يشمل الحياة السياسية وحدها، بل تسرب إلى بعض مجالات الحياة الاجتماعية وإنْ على نطاق ضيق، دوافع التفرد والأنانية والتسلط كانت حاضرة فغاب الكلّ وحضرت الفردية والذاتية والحزبية.

عاش الأسرى داخل السجون الإسرائيلية قبل 2023/10/7 في أقسام منفصلة، تضمّ أبناء الفصيل الواحد، حفاظاً على الخصوصية الفكرية والاعتقادية، وإظهاراً للتعددية واحتراماً للاختلاف، إضافة إلى ما ساعد عليه هذا الفصل من وأد محاولات التدخل الخارجي، وقطع الطريق على أصحاب النفوس الضعيفة، أو الجهلة وغير الناضجين من أبناء التنظيمات المختلفة، مع وجود بعض الأقسام التي يشترك فيها فصيلان أو أكثر، وأقسام أخرى تضمّ كلّ فصائل العمل الإسلامي والوطني، الغرض منها تأكيد فكرة الوحدة ونبذ الفرقة، وأنّ فصل أبناء الفصائل في أقسام خاصة كان لغايات حميدة، أثبتت نجاعة وأثمرت خيراً لاحظه الجميع، بالرغم ما للأمر من بعض السلبيات، التي تجلّت في الابتعاد عن لغة الحوار عموماً، وخسارة فرصة الاحتكاك

بالآخرين والإفادة من أفكارهم ونقاشاتهم، وإفادتهم ما أمكن ذلك، ومحاولة الاحتلال الانفراد ببعض الفصائل ومواجهتها كلّ على حدة في بعض النضالات التي خاضتها الحركة الأسيرة.

اختيار التنظيم الذي سيعيش عنده الأسير كان إجراء روتينياً فور دخوله السجن، وإنْ لم ينتمِ إلى ذلك التنظيم في الخارج، فالاعتقاد والمنطلق الفكري لدى التنظيمات الفلسطينية أدى إلى تباين في نمط المعيشة ومدى انضباط السلوك، وفقاً للأبجديات التربوية والاجتماعية التي يتشربها كلّ إنسان، ويتبناها أيّ تنظيم، بالرغم من أنّ تلك الفروق لم تكن جذرية ولكنّها في مساحة ضيقة مغلقة مثل السجن تبدو منفرة، فيتمّ الاختيار على هذا الأساس وليس له صلة بالانتماء أو العمل، هذه ميزة انحصرت في الأسرى الأمنيين حسب اصطلاحات الحركة الأسيرة، وهم من سجنوا على خلفيات العمل ضدّ الاحتلال ومواجهته في الميادين كافة، بخلاف المساجين الجنائيين مرتكبي الجرائم.

بعد الانقلاب التاريخي الذي حدث يوم العبور الكبير؛ لجأت إدارة السجن كما عرفتم سابقاً إلى حلّ الهيئات الإدارية والتنظيمية، هيئات تشكلت من قيادات الفصائل والتنظيمات ومن ترشحهم للقيام بهذا الدور، وتمّ ترحيل أولئك القادة من السجون إلى سجون أخرى، وعزل عدد كبير منهم، وفي جوّ من الفراغ القيادي شنّت الإدارة هجمة على الأقسام كلّها، وقامت بحركة تنقلات واسعة شملت الجميع، فخلطت الأسرى في الأقسام والغرف، وسادت الفوضى المشهد أياماً، ووقع الخلاف وبعض المشادات والمشاحنات والاحتكاكات، بدافع من طيش أو تسرع، ثمّ انقلب السحر على الساحر بعد فترة تيه قصيرة، صار التفكّك إلى ترابط، وأصبح التشرذم تماسكاً، والتنافر ألفة، وظلّ الإخوة يتقاربون إلى أنْ انصهروا في كتلة أخوية واحدة عنوانها المودة والتضامن، عوامل الفرقة التي راهن عليها الاحتلال تلاشت، فاليوم لا مكتسبات لأحد، ولا خصوصية لجهة، الكلّ سواسية تحت ضربات الجلادين، والجميع مستهدف دون استثناء، اختلط الأنين وزفرات المعاناة من أبناء الفصائل، وربما سالت جراحهم معاً تحت التعذيب، جمع العدوان ما كان يظنّ أنّه سيفرقه، واصطفّ أبناء الحركة الأسيرة موحدين ينالون نصيبهم من التضحية، ويتقاسمون أرصدتهم من الصمود وطاقته الروحية والمعنوية، لقد أفشل الأسرى هذا المخطط، وحالوا دون وقوع كارثة لا تغتفر.

محاكم الاحتلال... استبداد مقنع باسم العدالة

أغلب الذين امتدّت يد المحتل إليهم في حملات الاعتقال الواسعة بعد يوم العبور لم يكن ثمة مسوغٌ قانوني لاعتقالهم، إذا تجاوزنا فكرة أنّ الاحتلال بحدّ ذاته ظلم؛ فإنّ هذه الاعتقالات لم تحمل صفة ولا وجهاً للحقّ أبداً، كانت تعسفاً صِرْفاً، وظلماً محضاً، وعدواناً بشعاً، وجوراً مقنناً، وبغياً موروثاً، كلّ هذا وأكثر، فالاعتقال الإداري هو تركة الاحتلال البريطاني الذي ابتدع هذه الجريمة، وخلفها سيفاً مسلطاً على رقاب الشعب الفلسطيني بيد خليفته في قيادة مشروع الاحتلال الصهيوني، فيكفي أنْ يقرر ضابط مخابرات من دولة الاحتلال اعتقالك، لتصبح ضحية المجهول الذي لا تعرف آخره، والحجة وجود ملف سري يرفع إلى المحكمة، دون لائحة اتهام علنية أو أسباب موضوعية، وأغلب هذه الملفات السرية تكون مكونة من تقاريرَ كيديةٍ لعملاءَ حاقدين، أو من عمليات تنصتٍ هي جريمة بحدّ ذاتها تؤول الأمور على ما تريد، أو افتراضات وشكوك واتهامات، وقد يكون الاعتقال مبنياً على إحساس ضابط المخابرات بالإهانة من صمود شاب أمامه، أو ردّاً على إصرار رجل على حماية حقّه في أرضه، وغير ذلك من الأسباب المبنية على دوافعَ شخصيةٍ عند الضباط ومساعديهم، يدخل الأسير السجن، ويبلغ بقرار إداري في ورقة أو شفوياً، أنّه معتقل بقرار من ضابط المنطقة المختص في جهاز الأمن العام الإسرائيلي (الشاباك)، أو ما يعرف بالمخابرات في التعبير الدارج، وتتراوح فترات الاعتقال من شهر إلى سنوات، تقسم هذه السنوات على تمديدات أقصاها ستة أشهر، وعند نهايتها يتمّ تمديد اعتقال الأسير مرة أخرى حسب رغبة ضابط المخابرات، وهكذا إلى أنْ تبلغ خمس سنوات في أقصى ما يسمح به الظلم ظاهرياً، لكن في بعض الحالات وجد الاحتلال لنفسه مخرجاً قانونياً، يصحب الأسير الذي أنهى مدة الخمس سنين إلى حاجز عسكري، يفرج عنه على ذلك الحاجز، وبعد خطاه الأولى يلتقطه جنود الحاجز ويعتقلونه ويعيدونه في سيارة الاعتقال نفسها التي جاءت به، ويمضي ما شاء الله له، والاعتقال الإداري مصيبة كبرى على نفسية الأسير، فهناك سقف وهمي للاعتقال هو مدة التمديد الأولى ولْنقل إنّها ستة أشهر، يصل الأسير إلى نهايتها وهنا يصارع الأمل بأنْ تنتهي معاناته، وربما يصل اليوم الأخير، وقد يهنئه إخوانه، وتبلغه إدارة السجن بالإفراج، ثمّ يحصل فجأة على ورقة

تمديد جديدة، هكذا حدث ويحدث لأغلب الأسرى، ترقب وقلق مع كلّ مدة تنتهي أو تقارب على النهاية، أفق يملأُه الضباب ويلفه دخان الغموض بحجابه الأسود السميك.

يُخرج الأسير خلال أسبوع من اعتقاله إلى استجواب روتيني عند شرطة الاحتلال، يدخل إلى مكتب المحقق فيسأله بضعة أسئلة من ثمانية إلى عشرة، معظمها عن تفاصيل هويته الشخصية، اسمه وعنوانه وتاريخ ميلاده وعمله، وغير ذلك من معلومات، ثمّ يسأله عن أمور يجيب المحقق عليها بنفسه بالنفي، فيريح نفسه من عناء طلب توقيع الأسير على أقواله، ثمّ يتمّ إجراء أخذ البصمات وعينات الحمض النووي Deoxyribonucleic acid (DNA)، ثمّ يعاد الأسير إلى محبسه، وصار نافلة من القول أنْ تعلم عزيزي القارئ أنّ الخروج إلى هذا الروتين الفارغ، والعودة منه إلى غرفة السجن، يصحب بحفلات وداع واستقبال صرت تعرف شكلها، وكأنّ الضرب والتنكيل صار نشاطاً اعتيادياً دخل ضمن إجراءات الدخول والخروج الطبيعية.

الخطوة التالية هي العرض على المحكمة العسكرية، يتمّ إبلاغنا بالموعد المحدد، ثمّ نؤخذ إليها، قد يخيل للمرء أنّها قاعة فيها قفص ومقاعد وفي صدرها منصة القاضي، وأمامه يقف المدعي والمحامي، ليس شيئاً من هذا يا صديقي، نقلتُ من غرفتي في السجن إلى غرفة مجاورة خارج القسم، فيها شاشة حاسوب وفوقها كاميرا مثبتة، المحاكمة ستتمّ عن بُعد بواسطة نظام مؤتمرات الفيديو (الفيديو كونفرانس Video Conference) كما يسمونها، يتكلم ممثل النيابة والادعاء بأنّه يجب إبقاء الأسير في السجن مدة ستة أشهر قابلة للتمديد، فهو خطر على أمن المنطقة، الجملة السحرية التي كلّ حرف من حروفها كذب واختلاق وافتراء وبهتان وزيف وعدوان، لكنّها الجملة الوحيدة المبرر لاعتقال آلاف الفلسطينيين، ثمّ تردف هذه العبارة بأنّ هذا الطلب جاء بناء على ملفات سرية جاءت بها مصادر معلومات موثوقة، ولا يمكن الإفصاح عن مصادر المعلومات تلك لأنّ كشفها يضرّ بالأمن، وهي بعض ما أخبرتكم عنه في المقدمة.

يستجيب القاضي لعبارات ممثل النيابة، للعلم فإنّ القاضي ضابط في جيش الاحتلال، يمسك بالأوراق المرفقة أمامه، ويبدأ بتقليبها بحركة تمثيلية مفضوحة، يهزّ رأسه ويحملق بعينيه، موحياً بأنّه يستشعر الخطر في السطور التي يقرأها، وربما تكون الأوراق أمامه بيضاء، الأكيد أنّها فارغة الجوهر والمضمون، وربما تكون أوراقاً لا صلة لها بكلّ ما يجري، يقف محامي الدفاع ويحاول يائساً تغيير القرار،

فكيف يستطيع الدفاع عن شخص لا يعرف تهمته وقضيته؟! ولا يمكنه الاطلاع على المعلومات السرية ومصادرها المزعومة!

يفيد المحامي أحياناً في أنّه يمنح الأسير مجالاً للحديث، وقد طلب لي محامي الدفاع هذه الفرصة، تكلمت وقلت:

> يا حضرة القاضي، أنا لم أرتكب أيّ جرم، ولست متهماً بأيّ مخالفة، وليس عليّ دليل، ولا إقرار منّي أو اعتراف من غيري بأيّ شيء، ولا أنتمي إلى أيّ تنظيم، أنا طبيب أقوم بعملي في مهنة الطب، وأعبّر عن آرائي وأفكاري وأتخذ مواقفي علناً، ولا أقوم بأيّ تصرفات ولا أتصل بأيّ علاقات سرية، وأنا أرفض وأنفي كلّ ما جاء في اتهامات النيابة، وأطلب التحقيق معي بشكل رسمي ونظامي، وأنا مستعد للسجن وأرضى به إذا ظهرت إدانتي بمعلومات صحيحة، أو بإثباتات بينة، أما الكلام عن معلومات سرية فهذا زعم باطل وكلام غير صحيح.

يجلس القاضي في مكانه غائباً عن الوعي، لا أقصد الحالة الطبية لفقدان الوعي، بل أذنه الصماء وضميره الغائب عن سماع ما يقوله الأسير ومحاميه، كلّ المداولات تأخذ خمساً إلى سبع دقائق، تنتهي بعدها المحاكمة بمصادقة الضابط الذي يحمل صفة القاضي على قرار الاعتقال الإداري، وهكذا تدور العجلة ويأتي دور الأسير التالي، روتين ممل يختزن في مدته القصيرة قدراً لا يحصى من القهر والألم، أنْ تكون حرية الإنسان رخيصة إلى هذا القدر، وأنْ يمتلك غيره فرض إرادته في تغييبها.

هذه المحاكم ليست إلا صورة من صور القتل المعنوي وزراعة الوهم، غريبة على الحقّ والعدالة، تفتقر إلى الإنسانية وتتناقض مع القوانين، وقد يحدث فيها ما يلخص حالها، فمثلاً الدكتور مصطفى شاور رئيس رابطة علماء فلسطين كثير التعرض للاعتقال الإداري، وقف قبل سنوات في محكمة لتثبيت القرار الإداري، سأله القاضي: "هل ترغب في الحديث؟" فأجاب: "أما عن القضية التي أمامكم فلا أتحدث عما لا أعرف ولا كلام عندي حولها، وأما إنْ أذنَ القاضي فعندي قصة قصيرة أودّ أنْ أقولها"، أذن القاضي له، وبدأ بسرد القصة، تقول الحكاية: إنّه كان ملك ظالم يأخذ أموال الناس غصباً، ويتطفل على التجار ويسلب أموالهم دون وجه حقّ، وقد التزموا بتسديد المفروض عليهم من ضرائب، لكنّه أراد المزيد من المال، لجأ الملك إلى الحيلة لجباية مزيد من المال يشبع جشعه، أحضر حماراً وأسرجه بسرج حصان،

ربطه في ناحية قاعة ودعا إليه التجار، أدخل الأول فسأله: ما هذا الذي في الزاوية؟ قال التاجر: أعزّ الله الملك، هذا حمار، علا صوت الملك وقال: ويحك، ألا تراه مسروجاً؟ أليست الخيول ما يسرج من الدواب! غرمتك لجهلك بخمسمئة دينار، انصرف التاجر حائراً، عند الباب استوقفه أصحابه وسألوه عما دار معه، ونبههم إلى ما حسبه جواباً يريده الملك، ثمّ نودي على التاجر التالي فدخل، سأله الملك: هل تعرف هذا المربوط في الزاوية؟ فأجاب بثقة: لا ريب، هذا حصان، وعليه سرج جميل يليق به، سخر الملك وقال ضاحكاً: عجباً لك، تاجر ثري لا يستطيع تمييز الحصان من الحمار! هذا حمار وإن كان مسروجاً، ادفع غرامة خمسمئة دينار لغبائك، خرج الرجل حزيناً وأخبر زملاءه أنّ الفكرة لم تنفع، وأدخل على الملك تاجر آخر، وسأله الملك السؤال ذاته، جال الرجل بنظره بين الحمار المسروج وبين الملك ثمّ قال: أما هذا يا مولاي فابتلاء ابتلانا الله به، وأما الخمسمئة دينار التي تريد فهاك، خذها وأعفني من جواب لا يعرفه أحد غيرك.

لست على يقين إن كان القاضي فهم المغزى أم لم يفهم، وربما لو فهم سيُظهر عدم الفهم؛ فهو يعلم أنّه ملك متسلط واقف لجباية ثمن لا يستحقه، ويستعمل لذلك الحيل المعماة، واللغز الذي على أيّ الجهات حللته ستكون الغارم، قاضٍ لا يملك حقّاً، وقضية مجهولة، وشهود غائبون، ثمّ تقرر الإدانة، والغرامة أشهر أو سنوات من عمر إنسان. ثمّ إنّ هذا الانفصام عن الواقع هو حقيقة تلك المحاكم، خصوصاً في محاكم الاعتقال الإداري، مذبح للعدالة ومشنقة للحرية وهاوية يسقط فيها الحقّ، ولا ريب؛ فالقاضي والمدعي موظفان في مؤسسة واحدة هي جيش الاحتلال، وملزمان بقرارات تلك الجهة، لا سبيل إلى دفاع يجده المحامي فينفذ منه، أو يعلمه الأسير فيحاول سلوكه، يحسّ الأسرى الإداريون أحياناً أنّهم شهود زور في هذه المداولات، يقوم فيها الضحية بالشهادة لمصلحة الجاني الحقيقي، لكن على خشبة مسرحية خيالية، دقائق قد لا تكفي لسرد المعلومات الشخصية أو لتحية الحضور، يُمضَغُ فيها عمر إنسان ويقرر مصيره، بناء على فرية "خطر على أمن المنطقة".

أستعير هنا فسحة للبوح بما يحسّ به الأسير الإداري من وحشة الظلم وقسوة الاضطهاد، ولواعج النفس ومأساتها الجوانية:

1. الإحساس بالظلم، الذي يبدأ فعلاً لحظة اتخاذ قرار الاعتقال وتنفيذه، أُشبّه حال الأسير كأنّه سقط من علوّ في فراغ لا يعرف آخره، ولا يستطيع أنْ يتوقع كيف

سيخرج منه، هاوية من الضغوط والإحساس الدائم بالقلق، أو وادٍ سحيق من المجهول، الأسرى الأمنيون الآخرون يعرف كلّ واحد منهم ما الذي فعله في مواجهة الاحتلال فعاقبه الاحتلال عليه، يرى التضحية التي يدفع ثمنها من سنيّ عمره، يعلم من قواعد الاحتلال ولوائحه مدى سجنه، ويعيش في استقرار نسبي إلى أنْ يصل لحظة الإفراج عنه، أما الأسرى الإداريون فتضاف إلى معاناتهم مثل سائر الأسرى معاناة نفسية منهكة، دون الانتقاص من معاناة أيّ أسير، يتنامى الشعور بالظلم كلّ لحظة مع غرق الأسير الإداري في ظلمة الغموض وانعدام اليقين، ويفقد الإحساس بهدوء روحه، ولا يستطيع السيطرة على انفعالاته واستجابته في كثير من الأحيان، وقد يتأثر سلوكه ومزاجه في بعض الأوقات، أما الأيام الأخيرة عند كلّ محكمة أو مع اقتراب موعد نهاية التمديد المعتمد يشتهي الأسير الإداري النوم، تدور في رأسه دوامة من الأسئلة تعصف بسكينته وتجرح طمأنينته في الصميم، هل سيفرج عنّي؟ هل سيتمّ تمديد اعتقالي مرة أخرى؟ هل سألتقي بأهلي وأحبتي وستكشف الغمة؟ أم سينسون ملفي وأترك فريسة للانتظار؟ وغيرها من الأسئلة التي لا جواب لها.

2. قد يخطر ببال من يقرأ حديثي عن المحاكم الشكلية، أنّ الأسرى الإداريين لا يجب أنْ يشاركوا في المحاكم، وأنّه ليس عليهم أنْ يتجشموا عناء الاتصال بالمحامين وتوكيلهم لأجل محاكم صورية، وهذا الكلام حقّ، لولا أنّ الأنفع هو توظيف المحامين، والرسالة من ذلك هي أنْ يعلم المحتل أنّك لست مستسلماً لإرادته، وأنّك ترفض ظلمه، وتحاول الخلاص من قيده، المحامي كان يشعرني بشيء من الأنس تحتاجه النفس الإنسانية، وأقدر أنّه يمنع الاحتلال من الانفراد بالأسرى والتغول عليهم والتمادي في اعتقالهم الظالم، حقّاً إنّ دور المحامي ضعيف في القضية وتطوراتها، لكنّ له دوراً مركزياً في متابعة موقف الأسير وحاله، ما يجعل إدارة السجون والمسؤولين عن الاعتقال في حراك دائم، وربما يسهم ذلك في وضع حدٍّ للاعتقال وإنهائه أحياناً.

3. المحامون الموكلون بقضايا الأسرى عامة يكلفون بذلك من ثلاث جهات، الأولى هي هيئة شؤون الأسرى والمحررين الفلسطينية، هيئة حكومية تتابع شؤون الأسرى وقضاياهم وتتعاقد مع المحامين لأجل ذلك، والثانية هي التنظيم الذي ينتمي إليه الأسير الفلسطيني، حيث يعتني بأفراده وكوادره ويتبنى قضاياهم ويوقف عليهم المحامين. والثالثة أن يتكفل الأسير وأهله بالتعاقد مع المحامي وتوكيله ومتابعة سير

القضية معه، وما حصل بعد 7 تشرين الأول/ أكتوبر هو أنّ الأسرى غيبوا عن العالم تماماً، وأنّ الآلاف من أبناء الشعب الفلسطيني تعرضوا للاعتقال في فترة أيام قليلة، ففقد المحامون السيطرة على الوضع، وعانى بعض الأسرى من ضياع ملفاتهم، ولم يستطيعوا تبين أحوالهم، فلم يعرفوا مواعيد المحاكم ومجرياتها، وهل سيذهبون إلى محكمة استئناف بعد صدور القرار بالاعتقال، وهل سيتوجه المحامي إلى المحكمة العليا الإسرائيلية، أم أنّه سيكتفي في هذه المرحلة بالاستئناف، شكوك وتخوفات وظنون، تنوش بمخالبها عقل الإنسان وفكره وتترك أثرها على نفسيته ووجدانه، مأساة لا يتحمل مسؤوليتها أحدٌ غير الاحتلال، فهو المتسببُ والمنفذ لظلم الاعتقال، وهو القائم على كلّ الجرائم في أثنائه، وهو من يحول بين الأسير وأهله ويمنع التواصل معهم ومع محاميه، ما يحدث تلك الهوة العميقة من الاضطراب والقلق، غير أنّني أسجل في ختام هذه الفقرة مناشدة عاجلة دائمة، ورجاء لا تنقطع الحاجة إليه، موجهاً إلى هيئة شؤون الأسرى، بالمتابعة الحثيثة لمن تتعاقد معهم من محامين، والمراجعة الدورية لقيامهم بواجباتهم، وزيادة أعدادهم لتخفيف أعبائهم، وأرسل نداء من جرح القلب الذي لم يندمل، إلى كلّ الحقوقيين والقانونيين الموكلين بقضايا الأسرى والمهتمين بها، أن يزيدوا من بذل أقصى الجهود المهنية الممكنة، ومضاعفة التواصل مع الأسرى وذويهم وزيارتهم، الأمر الذي سيترك أثره على نفسية الأسير وعائلته، ويحفظ شعرة التواصل دون انقطاع يعزل الأسرى خارج الزمان.

الصمود يكسب الرهان

كلّ هذا الطغيان والظلم والتنكيل، وكلّ محاولات تدمير إرادة الأسرى وقتل روحهم المعنوية بعد 7 تشرين الأول/ أكتوبر، وكلّ الخطط الممنهجة للنيل من الأسرى فشلت؛ فالأسير الفلسطيني صاحب قضية عادلة، ويستند إلى حقّ ثابت، ويتحلى بإرادة صلبة، وعزيمة جبارة، ويمتلك من العناد في الحقّ ما يمكّنه من الصمود، ويدفعه انتماؤه لأرضه ووطنه إلى الرباط فداءً لقضيته العادلة، يحتسب أجره وما يلاقيه من عنت السجن، وشدة السجانين، وضنك العيش، وجهد البلاء، يحتسب ذلك عند الله، ويرفع رأسه شامخاً بعد كلّ جولة يظنّ السجان أنّه قد انتصر فيها، فيذهب الأذى وآثار العذاب وتبقى الهامة مرفوعة بعزة وإباء. وتلاحظ عزيمة الأسرى وإرادتهم التي لا تلين في العناوين الآتية:

1. مجتمع السجن:

عملت الإدارة على التفرقة بين الأسرى، وحرصت أنْ تنشر بينهم العداوة والخصومة، واستعملت لذلك الولاءات الفصائلية والمناطقية، وحرضت هذه المواقف بيد خفية، والأسرى بشر كبقية البشر، يعتريهم ما يعتري غيرهم من الضعف والنقص والهوى، ثمّ إنّ الاختلاف إذا لم تقده الحكمة صار خلافاً، وطبائع الناس مختلفة، وتجميع أناس مختلفي الطباع والتقاليد والميول والتفكير في مكان واحد يحدّ من التواصل بينهم، أو يصل إلى حدّ وقوع المشاكل بداية بارتفاع الأصوات، والعراك بالأيدي في بعض المواقف.

عرف الجميع أنّ هذه نتيجة للسجن، وأدركوا ما مكر بهم من الإدارة، ومع مرور الوقت تعارف الأسرى المختلفون على بعضهم بعضاً، وألف كلّ منهم اختلاف زميله عنه، وعاد التجانس والترابط بينهم، والضغوط الكبيرة التي كانت سبباً في مزاج حادٍّ دعاهم إلى المشاكل، صارت جزءاً من استتباب الأمور، وعودة مياه الحياة إلى الجريان، تحسنت ظروف التواصل الاجتماعي، فتشارك الأسرى بعد شهرين من المعاناة همهم الواحد، وتقاسموا ما قدر لهم من فتات المعاش، انطفأت نار الخلاف وأزهرت الألفة

والمودة، وأصبح الجميع على قناعة تامة ويقين راسخ أنّنا يمكننا الحصول على حياة أفضل باجتماعنا، وأنّ فرقتنا تسرّ عدونا ولا تنفعنا، فعشنا فترة طويلة من التآخي والتعاطف، وتغلبنا على كلّ العقبات، معاً صمدنا وانتصرنا وشكّلنا مجتمعاً منسجماً بالعاطفة والروح والوجهة والإرادة، أذكر الآن بحب وفخر أنّ آخر شهرين قضيتهما في ذلك القسم لم يشهدا أيّ مشكلة، وهذا وحده يكفي ليدلل على ما سرى بين الجميع من تيار الحب ورقي الوعي، وسلامة التفكير.

2. إدارة خدمات الأسرى:

تحدثت من قبل عن حلّ الهيئات الإدارية والتنظيمات، والآن نقف أمام معضلة حقيقية، فشؤون مثل توزيع الطعام والنظافة وتنظيم الدخول والخروج من الغرف وقت الفورة أمرٌ ضروري، والوقت المتاح لكلّ غرفة هو ربع ساعة، ليس من الممكن أنْ يفرط بها أيّ أسير في خدمة الباقين، فهي فرصته الوحيدة، اضطرت الإدارة أمام هذا الواقع، وهي التي لا تريد أنْ يباشر سجانوها هذا العمل المُضني، إلى اختيار اثنين من الأسرى يومياً يبقيان في الساحة معظم النهار، ويقومان بتوزيع الطعام ويقومان بتنظيف الحمامات الخارجية وساحة السجن، ويداوران في استعمال القشاطة بين الغرف لتنظيفها من الداخل، وهكذا حصلت الإدارة على راحة سجانيها، ووقع الاحتكاك بين الأسرى، فهذه المهمات الإدارية على بساطتها ليست سهلة، والاختيار العشوائي لأسيرين مختلفين من غرف مختلفة يومياً أفرز عدم انتظام في القيام بهذه الأعمال، فبعض من تمّ اختيارهم يفتقر إلى القدرة الإدارية، وبعضهم لا يملك مهارات التواصل واللباقة، ومنهم من تضعف نفسه ويعدو على نصيب إخوانه، ومنهم من لا يؤتمن جانبه، فليس كلّ من دخل السجن على نسق واحد، وليسوا أصحاب عقول متزنة ومهارات عالية دائماً، وفيهم البسطاء والعوام ومن لا صلة له بشيء من هذا في حياته خارج السجن، ومن يقوم على هذه الأعمال ينبغي أنْ يكون هادئ الطباع، رائق المزاج، متفهماً واعياً واسع الصدر، متفانياً يحب خدمة الآخرين، قادراً على ترتيب الأمور وتنظيمها، أميناً يتحلى بالإيثار، أمورٌ لا تجدها في كثير من الناس، فصرنا نستريح يوماً ونشقى يوماً، تترقب خروج فلان للعمل، وترجو ألا يكون آخر من يقع عليه الاختيار.

مضى وقتٌ ونحن على هذه الحال، ثمّ اكتشفت كلّ غرفة أيهم أصلح لهذا العمل، ومن منهم أقدر عليه، فاختاروا من غرفتهم الاثنين الأصبر على معاملة الآخرين، والأقدر على الاحتمال، والأقرب إلى النفوس، والأنشط في خدمة الإخوان، والأسرع في الإيثار والأمانة، والأكثر تضحية وإخلاصاً، ورشحوهم ليكونوا هم القائمين بهذا الأمر، وهكذا استقرت الأمور الإدارية والمعيشية مرة أخرى، وعاد الهدوء إلى هذا الجانب من حياة الأسرى، ونظمت الأعمال بقدرة عالية، ومهارة ممتازة، وعمل دؤوب، واستثمرت الموارد المتاحة أحسن استثمار.

3. الحال النفسية والعاطفية:

عاش الأسرى حالةً نفسية يرثى لها، ومروا بظروف تركتهم في وضع مزرٍ، الانقلاب الجذري لحياتهم، والتغير الكامل لكلّ الموازين، والانهيار التام في كلّ شيء، والتنكيل اليومي، والتضييق الذي مسّ مصادر الطبيعة من ضوء وهواء، وانعدام التواصل مع الأهل، والانقطاع عن العالم وغياب الأخبار، مرّت الفترة الأولى صعبة للغاية، الواقع المرّ ترك طعمه لوعة في نفس كلّ أسير، وحرقة لاهبة في مشاعره، وفراغاً واسعاً في عواطفه، لا تملأه إلا ظلال سوداء من واقع قاتم، تنازعه قلبه بين نفسه وأهله وقضيته، وفي الحالات كلّها كان يقف وحده لا يملك شيئاً؛ العجز عن الفعل، والشعور بالمسؤولية، ضدّان أفرغا فؤاد الأسرى، وصلت نفسيات بعض الأسرى إلى الحضيض، وأوشكوا على الانهيار، بل العجب أنّنا بقينا لنتذكر تلك الأيام.

مقدار العذاب الجسدي الذي عشناه هدد حياتنا فعلاً، لكنّ أثره كان يزول بشيء من الاحتمال وبعض المكابرة، وكثير من الصبر ومداراة الجراح، أما الضيم الذي لحق بنا، والعزلة التي وضعنا فيها، والخوف الذي أصابنا على من وراءنا وعلى أهلنا في كلّ مكان، نخر في معنوياتنا وكاد يصيبنا في مقتل، ولولا فضل الله ورحمته أن سخر بعض الرجال للقي الأسرى من تدهور نفسياتهم أكثر مما لقوا من بطش عدوهم، عملة نادرة من رجال قلائل، احتفظوا بجذوة الأمل في نفوسهم، واتصلوا بحبل عقيدة متين، ونشروا روح التفاؤل بضحكاتهم حيناً وبالتعالي على آهاتهم حيناً آخر، نظموا دموعهم أو قطرات دمهم عقوداً من الأمل ولم يبالوا، رفعوا بكلماتهم الطيبة المعنويات، ثبتوا بمواقفهم العزائم، رجال تحسّ أنّ للواحد منهم أرواحاً

لا تموت، كلما سدد إليهم سهم تلقوه برباطة جأش، وصدوه عنهم وعن إخوانهم بقناة لا تلين، وإرادة لا تنكسر، وعزيمة لا تفلّ.

العدوى فكرة طبية مادية، لكنّها موجودة في السلوك الإنساني والواقع النفسي للناس، يتضح دورها أكثر في مجتمع السجن المغلق، خصوصاً مع ساعات العزل الطويلة للمجموعة في غرفة واحدة، وهنا تحتكّ القلة أصحاب النفوس العظيمة التي حافظت على ثورانها، وانتصرت داخلياً على ظروف الاعتقال، بالكثرة ممن ركنوا إلى اليأس وانزلقوا مع موج الإحباط المتلاطم، الحياة تقول إنّ المستسلم لا يفعل، والجامد بقنوطه لا يؤثر، إلا إنْ خالط هامداً أضعف منه نفساً فيتبادلان التشاؤم، أما الفعالون فهم أولئك القادرون على أنْ يصبغوا الآخرين بلونهم، وأنْ يجروا الخطى إلى وجهتهم، وأنْ ينتشلوا الأرواح من غياهب القعود، فازداد المتفائلون كلّ يوم، وأصبحنا نعيش مناعة نفسية جمعية، هدأت الخواطر واستعاد الأسرى توازنهم، وتجاوزوا الصدمة الأولى، وتأقلموا على واقع جديد لم يرتضوه، ولكنّهم لن يتركوه يغلبهم في الوقت نفسه.

الحياة في السجن مرتبطة في وعينا بالأحلام، فيوسف عليه السلام يدخل السجن مع فتيان آخرين، يظهر في الأسر نبوغه في تأويل الرؤى، ويطبق ما علمه الله إياه من علم التأويل داخل السجن، وذلك في الشؤون البسيطة مثل: ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾،[10] وفي شؤون عامة مثل مصير الفتيين المسجونين معه، وكأنّ حياة السجين تخضع لعالم من الأحلام، كيف لا وهو الذي يجد من المعاناة ما يكفيه ليوقظ ليله بأحلام مختلفة، كما يجهد في نهاره بمكابدة الأسر وتبعاته.

أثر الوضع النفسي المضطرب للأسرى في أحلامهم، فكانت الأحلام والرؤى ميداناً آخر من ميادين الصراع، فهي تتأثر بشكل لافت بالحياة اليومية للإنسان، وما يختزنه عقله الباطن، وما يراه الإنسان في نومه قد يكون رؤى من الله، وقد يكون تحريشاً شيطانياً، وقد يكون من حديث النفس وما يروعها من أمور أو تفقده من حاجات، وقد لاحظت أنّ أحلام الأسرى في المرحلة الأولى من الاعتقال كانت مشوشة، تفتقر إلى معالم الرؤية الواضحة، فهي تحمل هموم الأسرى وعواطفهم وما تضيق به

[10] **القرآن الكريم**، سورة يوسف: 37.

صدورهم، يستيقظون صباحاً كلّ يوم متلهفين ليجدوا شخصاً يثقون به ويطمئنون إليه، يبثّونه ما جال في ليلهم، وما جرى خلف أستار جفونهم، ويسألونه التأويل، في كلّ قسم وغرفة هناك يوسف ليس بنبوته وعلمه، لكن بسؤال الآخرين له ولجوئهم إليه، وهناك فتيان يسألون ويبحثون لعلهم يرجعون بخبر أو يعلمون شيئاً، شيء قد لا يكون حقيقة ولكنّه يكفيهم ويعينهم على صمود أيام قادمة، أو يسلّيهم عما هم فيه من الكرب الشديد.

واجهتنا في ميدان تأويل الرؤى وتفسير الأحلام نفسيات بعض الإخوة التي غطتها غشاوة التشاؤم، فهم يتعجلون الخير ولا يصبرون، ويترقبون كلّ نافذة للفرج، ويسارعون للبحث عن المخرج، يريدون النصر عاجلاً غير آجل، ولا يستطيعون مكابدة الانتظار، فيسقطون في فخّ عدم تحقق الآمال والتأويلات الفوري، تراهم كلّ مرة يشعرون بالخيبة أمام واقع مرير، فيعودون إلينا بالأسئلة وربما بالشكّ، فنذكرهم بقصة صلح الحديبية، حيث رأى رسول الله ﷺ قبل الخروج إلى العمرة ذاك العام أنّه يدخل مكة ويعتمر، وحدّث بذلك أصحابه فخرجوا إلى مكة من المدينة يريدون العمرة، ودارت المفاوضات بين الرسول وقريش، واتفقوا على أن يرجع الرسول عامه هذا، هنا اضطربت قلوب الصحابة المشتاقين إلى مكة، لقد صدقوا رسول الله ﷺ لكنّ شوقهم غلبهم فراجعوه، ومنهم عمر بن الخطاب الذي سأل رسول الله: ألم تخبرنا، ألم تحدثنا؟! فيجيبه الرسول ﷺ بقوله: وهل أخبرتك أنّ الأمر يكون هذا العام؟! هذه العبارة النبوية صارت ردّنا وجوابنا على كلّ شكّ نواجهه أو سؤال يتعجلنا، فقد كثرت الرؤى التي تبدو صادقة، ويظهر أنّها أكيدة التحقق، جلية في معناها، صادقة في جوهرها، نتنسم منها عبق نصر قادم، قد يتأخر قليلاً، العام القادم أو الذي يليه، أو يتعجل، الرؤى لا تعطينا علم الغيب، لكنّها تكشف عنّا حجب الواقع الثقيلة، لنرى مستقبلنا بعين مبصرة وقلب سليم، ونستبشر بإنجاز وعد الله ونبشر به، هي مثل قبس أو شهاب يعبر الليل البهيم، نتذكر مع وميضه أنّ الليل له آخر، وأنّ الصبح آت مهما خيّم الظلام، وقد نلمح بعض ما خفي علينا أو حجب عنّا.

تغير الحال بعد مدة، وبعد تغير مناحي الحياة الاجتماعية والإدارية، وانعكاس ذلك على واقع الأفراد، بدأت الرؤى الواضحة كفلق الصبح تكثر، وصارت لها معالم يمكن للإنسان أنْ يفهم منها مغزى، أو يخرج منها بتأويل، أو يستشفّ منها رسالة تزيد الإيمان وتورث اليقين، مع استمرار الأحلام المرتبطة بحديث النفس، وخصوصاً

ما كان له علاقة بالبطون الجائعة والأمعاء الخاوية، وقد كان هذا الأمر حلم نوم أو حلم يقظة، يتندر به الأسرى ليلطفوا أجواء اعتقالهم، فهذا الذي يقضي ليله وما أمكن من نهاره وهو يأكل أشهى الأطعمة مع أهله، وذاك الذي يتناول ألذ الحلويات، وآخر ينشغل بالتسوق في المتاجر والأسواق، ومنهم من يفعل ذلك كلّه؛ إذْ يرى نفسه خارج القضبان حراً طليقاً، ولا شيء يحدث من هذا، إلا أنّه عزاء يمنيهم بقادم قريب يكون خيراً لهم إن شاء الله.

القوي في السجن يحمل الضعيف، وليس ذلك بالبدن، بل بمن كانت قوته في أيّ شيء يملكه، فربما تكون القوة في الرأي وحسن التدبير، وذاك ما عرفناه في الأستاذ هاني أبو السباع، الذي اقترح علينا أن لا ننشر ما يرد إلينا من أخبار إلا أن نراجعها ونعيد تحريرها، ما يجعلها أقرب إلى النفوس، ويسمح لنا بتوجيهها إيجابياً، فلا يسيطر التشاؤم على الأسرى، وقد ترأس بنفسه هيئة التحرير، فصرنا نجد الأخبار تحمل البشريات، ودائماً ما كانت تعرض علينا من النصف المملوء للكأس.

ومن الأقوياء في السجن الشعراء والأدباء، هم دفء آخر عشناه وحظينا به في قسمنا، أولئك الذين يملكون أدوات انفعال وإفادة في صدورهم، ويستطيعون إيجاد وقائع خارج المكان، ويمكنهم اختطاف الأرواح إلى عالم تحبه، ويسبحون في الخيال ويأخذونك معهم إليه، الأستاذ الشاعر الأديب عقل ربيع كان واحداً منهم، نهض بهمم إخوانه، فرافقتهم أشعاره التي ينظمها بأسمائهم وصفاتهم، وداعبتهم مشاعره الصادقة في كلماته، كلمات لا تسرف في الخيال، ولا تذهب إلى التعقيد والرموز والتصاوير الثقيلة، لكنّها بسلاستها وسهولتها تغشى النفس بجمال يأخذها من وحشتها، تحسّ أنّك شيء تحمله أبيات الشعر بعيداً خلف الأسوار، تؤرجحه في الفضاء الرحب ولو إلى حين، نظم فيّ أربعة أبيات قال فيها:

قالوا سليلٌ لعاشورٍ تخصصه — طب العيون، عظيم القدرِ والشانِ
فقلتُ: لا تسهبوا في الوصف أعرفه — شهماً ويعرفهُ القاصي مع الداني
فاروقُ عاشور دكتورٌ وفي يدِهِ — طبٌّ وفي قلبِهِ إبداعُ فنانِ
أهديه في مهجتي بيتاً ليسكنه — ولو سألت الذي أعطيتُ أعطاني

وبعد الإفراج عن الأستاذ عقل ربيع خلفه الأسير عمرو سدلة على المنبر، فصار يقصده الأسرى كلّ فسحة، يسألونه أن يكتب لهم أشعاراً عنهم وعن أبنائهم وأهلهم، يطلبون منه أن يصور لهم واقعة بعينها، أو حياتهم في ظرف معين، وهو يكتب وينظم ويملي الأشعار والكلمات، فصار باب زنزانته المغلقة عليه مزاراً للأسرى، يبحثون عنده عما يروح عنهم، ويسلي أنفسهم، أولئك الأدباء والشعراء كانوا مكافأة من حيث لا يدرون، ووزعوا أنفسهم على الأسرى أملاً وسلوى. هكذا كانت الأمور سهلة وجميلة ورائقة، تمنح الإيجابية وتمسح جراح النفس، فتنقذ الكثيرين من هاوية نفسية سحيقة لا قرار لها.

4. ممارسة الرياضة:

منعت الإدارة ممارسة الرياضة في الساحة أو في الغرف، وصادرت كلّ الوسائل والأدوات التي قد تساعد على هذا النشاط، وقامت بمراقبة الأسرى والتأكد من تطبيقهم لقراراتها، وقد عزف كثير من الأسرى عن ممارسة الرياضة بسبب واقعهم النفسي الكارثي، أو بسبب قلة الطعام وسوء التغذية، هذا زيادة على الخوف من العقوبات والتهديدات من الإدارة.

بعد فترة من التنكيل وتقتير الطعام سقطت دفاعات الأجساد الأولى بفقدان الأسرى شحم أجسادهم، وصرنا نفقد أنسجتنا العضلية، قررت ومعي عدد من الأسرى أنْ نعود لممارسة أنشطة رياضية خلسة عن الإدارة، تمارين خفيفة لليدين والرجلين والعمود الفقري وعضلات البطن، وما سمحت به مساحة الغرفة الضيقة، قمنا ببعض تلك التمارين على الأبراش، واستطعنا أنْ نسترق ساعة من النهار لذلك، والأثر المادي والمعنوي كان كبيراً.

حرصت خارج السجن على ممارسة الرياضة بشكل يومي، فقد عرفت فوائدها على الجسد، وكنت أعلم آثارها على النفس، فهي تبعث على السعادة، وتزيد الشعور بالحيوية، وتعين على التفكير السليم، وتحفز التجدد، وتقوي المناعة، وهي مصدر للتفاؤل، هجرنا هذا الكنز أو نسيناه أو غفلنا عنه، أما الآن فلا تراجع ولا توقف، يدفعنا إلى ذلك الفوائد التي وجدناها مضاعفة، أو شعور خفي بالانتصار في زاوية ما، حيث تغلبنا على المنع، وتجاوزنا القيود المفروضة، فأحببنا أنْ نظلّ منتصرين.

سرى الأمر في صفوف الأسرى مثل خبر سارّ، وجرى دم النشاط في عروقهم، وتاقت قلوبهم إلى الدوران بقوة وعنفوان، فانضمّ نحو 80% من الأسرى إلى ممارسة أنشطة رياضية، حدثٌ غيّر في النفوس الشيء الكثير، وأعلن عن مرحلة جديدة من الطاقة الإيجابية تبسط جناحيها علينا، نتقوى على ما نواجه كلّ يوم، ونصنع لأنفسنا جواً مشبعاً بإرادة الحياة.

5. الحالة الصحية للأسرى:

لا أريد تكرار الحديث عن الإهمال الطبي الممنهج للمرضى، وإنْ كان هذا الموضوع يستحق أكثر مما ناله، فالتجارب المأساوية أكثر من أن يحصرها كتاب واحد، حديثي في هذه الأسطر عن الوضع الصحي للأسرى كافة، ومقاومتهم للأمراض الحادة والمزمنة، في ظلّ سياسة الحرمان وسوء التغذية وانعدام الموارد وقلة الحركة، المفاجأة التي أستطيع بفخر إعلانها أنّ الوضع الصحي للأسرى كان أفضل من المتوقع بناء على كلّ ما سبق وصفه من حقائق التعذيب والإهمال وشحّ في كلّ شيء، مرّ علينا فصل الشتاء ولم يصب إلا عدد قليل من الأسرى بالإنفلونزا الموسمية، فعزلُ الأسرى عن بعضهم ومنعُ اختلاطهم؛ قلل معدلات العدوى الممكنة، وحرمانهم من السكر وهو المتسبب بانخفاض المناعة حافظ على مقاومتهم للأمراض.

الحرمان الذي أودى بمعظم الأسرى إلى هزال لافت كان نافعاً في بعض الجوانب هو الآخر، أمر أراده الله ولو علمت كيف تفعل الإدارة خلافه لما توانت، فقد ظهر الهزال على الأجساد، وصار الأسرى جميعاً نحيفي البنية، ما أعطاهم خفة ورشاقة، وساعدهم على التخلص من بعض أعراض الأمراض المزمنة، التي لها صلة مباشرة بالسمنة، كداء السكري، وارتفاع ضغط الدم، وارتفاع الدهنيات الضارة، وتحسنت أحوال مرضى العمود الفقري، وانخفضت معاناة أصحاب مشاكل العظام والمفاصل، إلى أنْ وصل بعض الأسرى للاستغناء عن الأدوية بعد فترة، فأجسادهم اعتدلت وتعافت من الأعراض المزمنة للأمراض، وقد أحسّ بعض الأسرى أنّ الأدوية صارت تترك أثراً سلبياً فتوقفوا عن تناولها، وذلك كلّه بفضل خلوّ الطعام من السكر والملح، إلا ما كان في الخبز المقتر علينا، وبإرادة الله سبحانه وحفظه.

تجربة الأسرى الصحية هذه، وإن كانت رغماً عنهم، هي رسالة صريحة عاجلة إلى من يهمه الأمر، أيها الناس: من أراد العافية في بدنه والسلامة في جسده والابتعاد عن الأمراض؛ فعليه أن يكون مقتصداً في طعامه وشرابه، وعليه أنْ يهرب من شبح التخمة، وأنْ يتخلص من الوزن الزائد، وأنْ يحافظ على نظام محدد في الأكل والشرب، وألا يسرف في شيء من هذا، وأنْ يتجنب كثرة الملح والسكر والدهون، الأسرى شاهد عملي، وحالهم الذي وصلوا إليه في السجون ناطق فصيح، لا ينكره عاقل، فاعتبروا يا أولي الألباب.

كان هذا الجانب الوحيد المضيء في الوضع الصحي للأسرى، وسبق أنْ تحدثت عن وقائع مهولة، وتفاصيل مفزعة نتجت عن الإهمال الطبي، كانت ابتلاءات حلّت بالأسرى ومزقت أفئدتهم، كلّ مرة أكاد أنجرف للحديث عنها وأتوقف، ولتعلم أخي القارئ أنّ ما كان من تحسن صحي لبعض الأسرى هو منحة ربانية لا علاقة لها بالظروف، ولعلّ الله أراد أنْ يخبرنا ويخبر الناس عن قدرته في تغيير المحن إلى عطايا؛ لنزداد يقيناً ونرسم أفقاً فيه شمس ستشرق من وسط الركام ومن تحت الأنقاض ومن جراح الجرحى وأكفان الشهداء، شمس ترسم غداً مشرقاً لأهلنا في غزة وكلّ شعبنا.

سلبيات في مجتمع الأسرى

لم نكن يوماً ملائكة تمشي على الأرض، ولا رسلاً معصومين من الخطأ، الأسرى بشر مثل غيرهم، ينتمون إلى شرائح مختلفة من المجتمع، ويأتون من أوساط متباينة، فذلك المتعلم وذلك الأمي، وهذا اعتاد حياة الريف ببساطتها وذاك تروق له حياة الصخب في المدن، وأسباب الاختلاف غير ذلك كثيرة، عانى الأسرى بعد 7 تشرين الأول/ أكتوبر من أمراض اجتماعية، كانت موجودة قبله، وجوداً محدوداً تتمّ معالجته والسيطرة عليه، خصوصاً مع وجود الهيئات الإدارية والتنظيمية التي تلاحق الظواهر وتجد الحلول، وتبني النسيج على أساس الانسجام، وتفرض أسساً وقواعد تضبط النظام، فتظلّ المشكلات خلف الكواليس إلى أنْ تحلّ بصمت، ولا تطفو على السطح إلا قليلاً، أما بعد تفكيك هذه المنظومة فقد تمرد بعض الأسرى، وانفلت آخرون من عقال كان يضبطهم، وظهرت سلبيات غير مألوفة على مجتمعات الأسرى الفلسطينيين، وأهمّ تلك الأمراض والمشكلات:

1. الأنانية وحب الذات: وأظهر ما كان يؤذينا به هذا السلوك الاجتماعي المريض هو الحاجات المعيشية، فالطعام يصل من إدارة السجن بحصص محدودة وأعداد ومقادير ثابتة، لكلّ أسير حقّه ونصيبه، يفترض أنْ توزع على الغرف بالتساوي، وتقسم داخل الغرف بالعدل، فليست حاجة واحد منّا أكبر من حاجة الآخر، والمعيب أنّ هذا التصرف لم يكن ليغني من يقوم به، ولكنّه يضرّ من ينقص نصيبه، فمثلاً كانت الإدارة توزع البيض المسلوق على الأسرى لكلّ واحد بيضة في اليوم، فإنْ كان القائم على التوزيع ضعيف النفس آثر نفسه أو غرفته بزيادة الحصة، وهذه الزيادة له تكون نقصاً عند غيره، وقد يستغرب بعض القراء أنْ أتحدث عن هذا الأمر، لكنّني تعمدت الحديث عنه لأنّه أولاً وقبل كلّ شيء بسبب سلوك الإدارة التي هيأت الظروف لأولئك الأفراد ليكونوا في موقع المسؤولية، ثمّ إنّ هذا العمل آذى الأسرى جميعهم، وأضرّ بنفسيتهم، إضافة إلى كون الجميع يعانون واقعاً واحداً فالجدير ألا تحدث مثل هذه الأعمال، والأصل أنْ يترفع الأسير الفلسطيني المضحي عن مثل هذه السلوكيات، الخبر الجيد أنّ هذا التصرف اندثر مع الوقت، فقد تمّ اختيار الأنسب للقيام بتلك

الواجبات، وتغيرت أخلاق كثيرين إلى الأفضل مع طول العشرة وحسن المعاملة والنصح من إخوانهم.

2. التعاون مع إدارة السجن والاستخبارات: وهما الجهتان المخولتان بمتابعة شؤون الأسرى من الناحية المعاشية مثل الغذاء والكهرباء والماء والنظافة والملابس، ومن الناحية الأمنية، كمتابعة أنشطة الأسرى واتصالاتهم وتشكيلاتهم، انحصرت العلاقة مع هاتين الجهتين قبل 7 تشرين الأول/ أكتوبر في الهيئات الإدارية والتنظيمية، ومنعت على باقي الأسرى، وكان من يتجاوز هذا المنع يقع تحت الشبهة ويضع نفسه في قفص الاتهام، أما مع واقع السجون الجديد فقد تسلل الضعف إلى بعض النفوس، وصاروا يتصلون بالإدارة والاستخبارات على وجه الخصوص، يتوسلون لقاءهم، ويطمعون بتحصيل مكاسب شخصية تافهة، وأبرز نقاط الضعف التي ضحى هؤلاء النفر بشرفهم من أجلها هي التدخين والسجائر، حيث منع التدخين نهائياً بعد الحرب، فذهب هؤلاء إلى سجانيهم وإلى ضباط الاستخبارات يتزلفون إليهم، ويتذللون في استرضائهم، طمعاً في بضعة سجائر، والمقابل كان خيانة إخوانه الأسرى الذين يقاسمهم السجن ويشترك معهم في بعض معاناته، نفر قليل لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة في كلّ قسم من نحو 120 أسيراً، باعوا أرواحهم للشيطان، وأتبعوا أنفسهم هواها، وغرقوا في وحل التحالف مع العدو، وهدفت الاستخبارات من وراء هذا التعاون إلى توظيف هؤلاء في بعض المهام، مثل التفرقة وإثارة الخلافات، أو نشر الإشاعات، أو الإبلاغ عن أماكن إخفاء أجهزة الاتصال الخلوي وشواحنها وأجهزة الراديو إنْ كان تبقى منها شيء.

هذا التعاون المذموم من أولئك الأشخاص كان بمبادرتهم هم، وبلهاثهم وراءه دون أنْ يطلب منهم، ما أسقطهم من أعين الأسرى. مقابل ذلك، حظيت بعض الشخصيات المعروفة وذات التاريخ النضالي والتجارب الاعتقالية بمتابعة دائمة من الاستخبارات، فهم يستدعونهم ويطلبون الجلوس إليهم، ويحاولون اختبار فاعليتهم، وسبر مدى تأثيرهم، واكتشاف دورهم داخل السجون، وأولئك الخبراء القديرون كانوا يعودون بنفع إخوانهم كلما سنحت لهم الفرصة، وشتان بين من يفرط بنفسه من أجل لذة لا قيمة لها مثل سيجارة وضيعة، وبين من يسعى عدوه إليه فيقف أمامه قوياً يقول الحقّ ويأمر به، والفارق بين الموقفين جلي، نحتاج إلى متابعة الأول والحذر منه

ودراسة أسبابه النفسية والاجتماعية وحلّها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، ويلزمنا تكريم شخصيات الموقف الثاني والاحتفاظ لهم بمنازلهم وأقدارهم وما يستحقونه من شكر واحترام.

3. إهدار الوقت بلا فائدة: الوقت سلعة رخيصة في السجن، تدور بها على الجميع فلا تجد من يشتريها أو يعيرها اهتماماً، أو عملة تنفق دون حساب فهي موجودة باستمرار ولا تنقطع، والأصل أن يستثمر الإنسان وقته بكلّ نافع، وأنْ يملأ عمره بالفوائد، فهذا الوقت عمره الذي سيسأل عنه أمام الله، كما علمنا عن نبينا ﷺ أنّه لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع، منها عمره فيما أفناه، والعمر يجري سواء أكان الإنسان في السجن أم حراً طليقاً، وسيحاسب عليه. تعذر بعض الأسرى بأنّه لا يوجد ما يفعلونه، مع هذا الفراغ المحيط بهم من كلّ ناحية، وأنّهم لا يجدون مناصاً من الركود وهدر الوقت، ولا بديل لهم عنه، فالعادة أنّ السجون تمتلئ أوقات الأسرى فيها بأنشطة شتى، الدينية والثقافية والفكرية والأدبية والرياضية، ومحاضرات توعوية، وحصص تعليمية، وجلسات مع الكتب وأهل العلم، ورياضات ومسابقات وألعاب، لم يتبقّ شيء من هذا، لكنّ الإرادة تجترح المعجزات، وتخرق العادات، فمن أراد ملء وقته وجد السبيل إلى ذلك، وهؤلاء عدد قليل من الأسرى عرف كيف يشغل نفسه ويملأ فراغه، فتعلموا من إخوانهم وعلموهم، وتدارسوا الأفكار والنظريات، وصحبوا القرآن والأذكار، ومارسوا الرياضة، ولم يتركوا شيئاً يمكنهم فعله علناً أو خفية عن إدارة السجن إلا فعلوه، ولأنّهم دعاة خير وفائدة لم يبقوا وحدهم؛ بل ازداد عددهم، وتحلق حولهم كثيرون من الأسرى، وجدوا أنّ الجلوس لعدّ الثواني والدقائق والساعات أمر مضنٍ، وأنّ القفز على هذا الوقت بالانشغال عنه بما هو مفيد يساعد على مروره أسرع، فصارت الفائدة والانشغال بالنافع وسيلة جيدة لقضاء الوقت وصيانة الأعمار.

إيجابيات في السجن بعد الحرب

1. تنزل المحن، وتقع المصائب، وتشتد الكروب، ونتعرض للشدائد، نبحث عن الملجأ، ونحاول التخفيف، ونطوف حول أنفسنا وننظر في كلّ مكان، نعود إلى حقيقة ينبت بها الإيمان في القلوب، لا ملجأ ولا منجى إلا بالله ومن الله، صورت سابقاً بعض المشاهد لما كان يحلّ بالأسرى، وما لاقوه طيلة أيام حبسهم من الضنك والشدة، أمور لو تأملها الإنسان بتجرد علم أنّه لم يحفظنا من الهلاك أو العاهات والإعاقات إلا الله، يقين أحسّ به الأسرى، فرجعوا إلى الله واعتصموا بحبله المتين، واستندوا إلى ركنه الشديد، فواجهوا المصاعب بثبات، وتجاوزوا التحديات بقوة.

لقد صار التمسك بالدين شعاراً يتجمل به الأسرى في صبرهم، وشاع فيهم قيام الليل الطويل، وكثر صيام النهار، وأقبلوا على ذكر الله، وسلّوا أنفسهم بالتلاوة ومدارسة القرآن وتذاكره، التقوا على باب الرحمن وفداً مخلصاً في طاعته، مخبتاً في عبادته، متضرعاً في دعائه، واقع إيماني ترك بصمته في السلوك، وأجواء روحانية حضنت الجميع بظلالها، الجميع في كلّ الغرف، صاروا قلباً موقناً يتجه إلى الله في كلّ شيء.

ظهر النور الإيماني في سلوك معظم الأسرى، أو في تغير جذري في سلوك بعضهم مع الأيام، فساد الإيثار بعد الأثرة، وصرنا مثل جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعينا له بالسهر والحمى، ترابطنا بأخوة عميقة، وتصافحنا بالقلوب، وتشاركنا حب الله والتعلق بجلاله، وأصبح تواصلنا مبنياً على حسن الخلق، وطيب المعاملة، ففزنا بسكينة وطمأنينة وارتياح كبير في تلك الظروف، ونأمل أن نكون قبلنا عند الله يوم القيامة.

2. الانشغال بالقرآن الكريم وتعلمه، وهو فرع من الإقبال على الله، لكنّ له خصوصية الحضور الأبرز، ونهم الأسرى في الاعتناء به والارتواء من معينه، لقد صار شغل الأسرى الشاغل، وعملهم الأثير، انتزعت الإدارة منّا كلّ ما قد كان يسرق أوقاتنا، فلا مشاغل للأسرى؛ لا نافعة من مكتبات ومحاضرات ورياضات، ولا غير نافعة من أمور التسلية وساعات التلفاز الطويلة والسجائر، ولم يتبقّ لنا إلا المصاحف، فاشتعلت الهمم في طلبها، وتحلقت القلوب على موائدها، يتقدمنا قدوات

قادوا حجنا الميمون إلى كتاب الله، وأيقظوا فيمن غفل الشغف والعزيمة، لنتعاهد المصاحف بالقراءة والمدارسة والحفظ، بعد أن كانت آخر ما تبقى لنا من زاد الدنيا والآخرة، مما لم تستطع الإدارة نزعه منّا أو استعدناه من يدها.

أكمل العشرات من الأسرى حفظ كتاب الله كاملاً، وسابق المئات منهم الزمن لإتمام حفظه قبل الإفراج عنهم، يصبح الأسرى فيتلون القرآن، ويمسون فيتلون القرآن، ويبيتون وهم يتلون القرآن، يختم عدد منهم كلّ ثلاثة أيام، وجماعة استطاعوا الختم كلّ أسبوع، وقليل من لم يختم أكثر من مرة في الشهر.

عاش الأسرى مع هذه البركات القرآنية، وحرصوا على نشرها، فاستقبلوا إخوانهم طلبة العلم بأيادٍ رحيمة وأكفّ حانية، علموا من عجز عن القراءة والكتابة، صبروا عليهم وواصلوا معهم وعززوهم ودفعوهم إلى الأمام، إلى أنْ أتقنوا قراءة القرآن، وبعد أنْ كان بعض الأسرى لا يعرف من القرآن غير سورة الفاتحة وقصار السور؛ صاروا يقرأون القرآن بكلّ سوره، وحفظوا الكثير منها، ومن لم يحفظ القرآن كاملاً أتمّ حفظ عشرين جزءاً أو عشرة أجزاء أو نحواً من ذلك.

ولم يقتصر الدرس القرآني على الحفظ وتعليم من لا يقرأ، بل عقدت دورات تجويد بدائية ومتخصصة، وأجريت الامتحانات، وأخذ بعض المدرسين على عاتقهم تفسير آياته بما يعلمون، وشرحوا معاني كلماته، وبينوا بعض أحكامه، فسهل على الجميع تلاوته، وصار خير رفيق وأنيس ونعم الجليس.

الشيخ سعيد عطية أبو سنينة مثال وقدوة، فهو حافظ لكتاب الله بالسند المتصل إلى رسول الله ﷺ منذ عشرين عاماً، ومجاز ليعمل في تحفيظ القرآن ومؤهل لذلك، فلا تكاد تعرف عنه الانشغال بغير القرآن، انتظمت حوله حلقات طلب القرآن، وبات لا يجد وقتاً للراحة من كثرة طلابه ومريديه، فاحتاج أن ينظم المواعيد ويرتب الأدوار بناء على الحاجات، فهذه حلقة تجويد وضبط للتلاوة، وهذه حلقة لمراجعة الحفظ والتسميع، وتلك للبحث والمدارسة في القرآن، وغيرها من الأعمال التي تؤمّ كتاب الله وتطوف حوله.

3. الحوارات الفكرية والنقاشات الفكرية العميقة، التي نهضت بالجماعة، ونشرت الوعي، وأضاءت الطريق للعقول، وأطلقت العنان للبحث والتأمل، حدثني أحد الأسرى المعتقل قبل الطوفان بثلاثة أشهر، قال إنّه شارك في دورة ثقافة سياسية

في الأشهر الأولى لاعتقاله، وأنّه كان يجب عليه أن يجيب على سؤال ويقدم الإجابة في ورقة نهاية الدورة، تندر الشاب على نفسه وقال: كان السؤال "هل الصراع مع الاحتلال الصهيوني ديني أم سياسي؟" ودارت بي الأفكار ولم أستطع تحديد الجواب، يكمل الشاب ويقول: لجأت إلى زملائي للحصول على الإجابة، فأخبروني أنّ الصراع ديني وسياسي، هنا يضحك الشاب على نفسه ويقول: كتبت الإجابة كما هي "ديني وسياسي" على ورقة وقدمتها، وكم كانت مفاجأتي كبيرة ودهشتي عظيمة، لقد أجبت على ذلك السؤال بكلمتين، وأجاب زملائي عليه بشرح مطول في ورقتين.

هذا الشاب وأضرابه أصبحوا مراجل تغلي طلباً للمعرفة، وازداد حرصهم على الفهم، واهتموا بالتفاصيل، وأحبوا أن يتعمقوا في تحليل الأخبار وتفسير الأحداث، والكشف عما وراء الستار، وكانوا لا يكفون عن استفزاز قرائحنا بأسئلة يتلقفون إجاباتها بإنصات وتركيز وانتباه، يريد أن يستوعب كلّ ما يقال له، ويحذر أن يفوته أيّ معنى.

يستمتع كأنّه يتلقى البشارات، ولا يتوقف عن الطلب ما أمكنه ذلك وأسعف إخوانه أن يجيبوه، يتعرف إلى التيارات والاتجاهات، ويتساءل عن المعتقدات والسياسات، ويتلهف إذا بدأنا بسرد التاريخ وأحداثه وتحليلاتها وعبرها، كنت قد قرأت كتاب صدام الحضارات لصموئيل هنتنجتون Samuel Huntington قبل 15 عاماً، واستشهدت ببعض أفكاره في حديثي، وأسقطتها على ما يحدث في السياسة الدولية، وعرجت ببعض الكلمات على حضارات العالم، ومستقبل الصاعد منها والساقط، فانفتحت شهية الشباب إلى المزيد، استجمعت أفكار الكتاب وموضوعاته في ذهني، ورتبتها واسترجعت مغازيها، وقدمتها منظمة في ساعة، لكنّ الرغبة الجامحة في الفهم والتعلم مددت الحوار إلى ساعات طويلة. أصبح الشباب بهذا الشغف أرضاً خصبة ترعرع فيها الفكر السليم، وتشربت المعلومات والمعارف بظمأ نادر.

التوفيق هو من أسرار النجاح الخفية، فحظينا في قسمنا بالشاب محمد بدر من رام الله، المتخصص في الإعلام والتحليل السياسي، فراح يكتب لنا مقالة كلّ يوم، يناقش فيها ما يصل إلينا من أخبار، فالأخبار كانت مقطوعة، مصدرها الوحيد أسير جديد يقدم من خارج السجن، أو زيارة المحامين لبعض الأسرى، وغيرها من المصادر التي سأتحدث عنها بالتفصيل لاحقاً، وكانت تلك المقالة تمرر على كل الغرف، يقرأها

بعض الشباب مرة أو اثنتين أو أكثر، يستعين بما فيها لزيادة حصيلته وتحرير ثقافته ومعرفته.

4. الروح المعنوية العالية، التي تجاوزت حدود الثقة بالنفس، وأصبح مصدرها الأول الثقة بالله، والإحساس بالحقّ والعدالة يبنيان الأجساد والنفوس، التأم مجتمع الأسرى وصار يسند بعضه بعضاً، يأخذ واحدنا بيد أخيه فلا يتركه حتى ينتشله من حزنه، ويخفف من همّه، ويقضي حاجته إذا تمكن، وقفنا في وجه العاصفة دون خوف، وحملنا أمانة القضية بكرامة، لم تنل الضربات منّا أكثر مما بقي على جلودنا وأجسادنا من آثارها، وكنّا كلّ مرة وكلّ يوم وكلّ ساعة نزداد يقيناً، ونتبادل أملاً، ونعلي الهمة.

قد يخطر على البال سؤال، لماذا ركن الأسرى إلى الواقع القمعي الجديد؟ وهم الذين كانوا يسندون الشعب الفلسطيني في محنه من خلف القضبان، وكانوا يواجهون الاحتلال بشراسة، وما سجنوا إلا بناء على جرأتهم وإقدامهم.

والجواب عن هذا التساؤل يتضح في رؤية وجوه شباب تحفزوا فعلاً للمواجهة، وكادوا يذهبون إليها بخطى ثابتة لا فيها رجفة خوف، ولا عرفت وقفة تردد، لكن من الحكمة والشجاعة أن يبقى المرء حياً أحياناً، ولسان حالنا يومئذ قول الشاعر:

قد ننحني للريح عند هبوبها   لكننا للريح لا ننقادُ

أقول هذا لأنّ الواقع لم يكن غيره، فثمن أيّ مواجهة في ذروة الأحداث كان القتل، بسبب أو دون سبب، حالة الحرب المعلنة في الخارج أعلنت داخل أسوار السجون، والجنود والسجانون مشحونون بكذب الإعلام وافتراءاته في تلك الأيام، وأياديهم على الزناد، ما أدى إلى ارتقاء عدد من الشهداء في الشهر الأول للحرب داخل السجون.

ومن لم يخشَ على نفسه من الشباب خشي على إخوانه، فالعقوبات جماعية لا تستثني أحداً، وكلنا رأى كيف أنّ أموراً عادية وروتينية مثل طلب إضاءة الكهرباء، وضمن شروط الإدارة، يتحول إلى قمع شديد بيد غليظة لا تعرف الرحمة، صار كلّ واحد يحسب حساب ما سيقع، ويعضّ على أسنانه ويكظم غيظه ويبتلع غضبه، وينتظر أن يفرج الله الكرب ويزيل الهمّ.

ثمّ إنّ أخبار صفقة تبادل الأسرى التي تتصاعد من فترة لأخرى كانت تتسرب إلينا، فيصبح العزاء مضاعفاً، والانتظار والاحتمال والأناة تلحّ أكثر، أشهر تمضي وسيأتي بعدها ما يغيظ الأعداء ويذهب كيدهم ويشفي الصدور، سيتحرر الأسرى خصوصاً أصحاب الأحكام المؤبدة، وسيحبون أنْ يذكروا صبرهم ورباطهم آخر أيام السجن، الأمل الذي يعيش عليه الناس وتقتات منه الأرواح لاح ويلوح، بل إنّه صار مثل البديهيات والمسلمات، قد يقع بين عشية وضحاها، وما هي حتى يأذن الله بأمره، فتحلّ العقدة وتنتهي كلّ الآلام والمعاناة، تسرد ذكريات في المجالس والاجتماعات وعلى الأوراق وعبر الشاشات، كما أفعل أنا الآن، فما يحتمله الأسرى ثمنه العاجل نصر من الله وفرج قريب.

خيار الصبر ودوافع الصمود

سردت ما استطعت من أحداث ومواقف وظروف، من يقرأها سيطرأ على ذهنه سؤال، كيف استطاع الأسرى البقاء أحياء؟ وما الذي مكّنهم من الصمود وتجاوز المحن واحدة تلو الأخرى؟ أسئلة طبيعية قياساً إلى الواقع الذي صورته بأمانة ودون مبالغة، والجواب موجود ما بين السطور، أعيد توضيحه وإظهار ملامحه. همم الناس متفاوتة، وكذلك قدراتهم ومهاراتهم، تضعف مخيلتنا عن إدراك قدرات الإنسان على الاحتمال، فنحن نتألم بشدة من زجاجة تجرح يدنا، أو من حرق نتيجة انسكاب مشروب ساخن، ويعتصرنا الألم من رؤية بعض المشاهد الفظيعة عن مجزرة أو إصابة بالغة، ولا نستطيع بعد هذا تحديد مدى قدرتنا على الصبر والتجلد، سمعنا وقرأنا وروينا القصص عن الثبات على الحقّ، قصة بلال بن رباح، وآل ياسر، وخباب بن الأرت، وغيرها من قصص الفداء ونماذج البطولة في التحمل، لكن لم نفكر في مقدار قدرتهم على ذلك! ولا ريب أنّهم سطروا حكاية صمودهم حتى انتهت المحنة، وتغيرت إلى منحة وذكريات وعبر ومواعظ ومثال وقدوة، وسجلاً لا يقدّر من الحسنات.

لقد أودع الله النفس الإنسانية قدرة فائقة على الاحتمال، ولكنّ هذه القدرة تحبس أو تنطلق حسب الموقف والحاجة، ولا تنطلق إلا بشرارة الإرادة، فالصمود إرادة وإيمان قبل كلّ شيء، وقد أجملت معززات الصمود لدى الأسرى في الأمور الآتية:

1. الثقة بالله وحفظه وتأييده وعدله:

الإيمان طاقة متجددة متجذرة في نفس الإنسان، تعطيه فضاء رحباً من القدرات والعزائم، فيصبح إيمانه طريقه إلى النجاة، ثمّ إنّ النفس المؤمنة تحمل الجسد على ما لا يطيق، وهو تابع لها ومنساق وراء ما تحضه عليه، الإيمان وحده ما يجعلك تنتظر الفرج دون أن ترى أدنى إشارة إليه، وهو وحده ما يمنحك فرصة تعويض ما لقيت بعد الموت ويوم الحساب، وهو وحده ما يعطيك الأجر على ما تعيشه من ظروف، كنّا نتمسك بحديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: "عجباً لأمر المؤمن، إنّ أمره كله له خير، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له"،

خير يصيبه في الدنيا بتجاوزه للمحنة، ويصيبه في الآخرة أجراً وثواباً وجزاء حسناً عند الله.

القرآن كان أنيس الوحشة وضياء الظلمة، آيات الصبر والتثبيت فيه تمرّ على القلوب كنسمة باردة في هاجرة صيف قائظ، فتذهل الأرواح عما تعانيه، وتحوم في عالم الملكوت، تستشعر قرب الله وحسن عنايته وجميل ثنائه على الصابرين، وتلتقي بمن سبق في ميدان الصمود وكان قدوة في الثبات، وكأنّ الروح تشارك بلالاً صخرته، وتكرر معه كلمته الخالدة: "أحد، أحد"، هنالك يتصاغر البلاء، ويتقوى الجسد بزادٍ لا تملك الإدارة منعه، فهو داخل كلّ إنسان، يجده إن أراده وبحث عنه.

2. الحياة بالأمل:

إذا انطفأ الأمل وانقطع الرجاء سقط الإنسان مستسلماً للمحنة، الأسرى كلّهم كانوا يتفجرون أملاً، كانوا على قناعة بأنّ الفرج قريب والخلاص عاجل، بل كان الأمر يقيناً أكثر منه أملاً، أيده توكل عجيب على الله، فكان الواحد منهم يتحدث عن مشاريعه وأعماله التي ينوي القيام بها بعد الإفراج، معظمهم رأوا أنفسهم خارج السجن في غضون أشهر معدودة، ولا بأس بذلك؛ فالتفاؤل يجعلك تتصبر إلى بلوغ غاية أقرب منالاً وفي أقصر زمن، فإن تحققت فبها ونعمت، وإلا فإنك تكون قد تجاوزت عقبة من العقبات، وقطعت مرحلة كان يمكن ألا تقطعها إذا استسلمت، وأكملت شوطاً يختصر أمامك المسافات مهما طالت.

3. قدرة الإنسان على التكيف مع متغيرات الواقع:

يضطر الإنسان إلى مواجهة ظروف غير التي اعتاد عليها، وعندما يصطدم بواقع جديد، مختلف عن كلّ ما يعرفه وما عايشه من وقائع، عالم متغير القواعد والأنظمة، متقلب الأحداث والمواقف؛ يدخل المرء فيه متاهة سلوكية، وتغزو الحيرة تفكيره، ولا يستطيع مجاراة التيار الذي يجرفه ويكاد يسقطه، والذين حوله أشخاص مختلفون عن النمط الذي يستطيع الاعتماد عليه، أو ليس لديه القدرة على التواصل مباشرة معهم؛ بسبب الاختلاف في كثير من التفاصيل والجزئيات، حتى في المبادئ والمنطلقات، هذه التغييرات الجذرية المعقدة بحاجة بعد الله إلى من يساعد في تذليلها، وتزويد الإنسان بطاقة الثبات والصبر والمصابرة.

يكمن السرّ في حلّ هذه المعضلة خلف عنوان واحد، قدرة الإنسان على التكيف، فعيشه في جوّ مضطرب غير مستقر، وعجزه عن تغيير الواقع، يدفعانه إلى التسليم ومحاولة البحث عن حلول ممكنة، لا تهدف إلى إزالة الضغوط فليس أمرها بيده، وإنما لتحويل الظروف القائمة عن مسارها أو تقبلها أو التأقلم معها، وتجربة الاعتقال المضنية بعد 7 تشرين الأول/ أكتوبر فرضت علينا أنْ نواجه ظروفها القاسية وواقعها الظالم بالرضا والقبول والتسليم، والحقّ أنّنا كنّا أمام خيارين هذا أولهما، والخيار الثاني هو اليأس والقنوط والسخط، ومع هذه المشاعر لن يتغير الواقع كما مع الخيار الأول، فإذا كان الواقع باقياً كما هو دون تغيير والأسير على أيّ الجنبين اتكأ لن يفلح في الإفلات؛ فالأولى والأجدر به والأنفع له أنْ يذهب إلى ما يريح نفسه، وهو تكيفه مع الواقع المستحدث وظروفه بكلّ ثقة وإيجابية وحسن تقدير.

كنت أعظ نفسي وإخواني وأردد عبارات تدفع إلى النظر أمامنا، أقول: إياك أنْ تبكي على الأطلال، وأنْ تصنع لنفسك قفصاً من السلبية، وأنْ تكبل يديك ورجليك بقيود الماضي، وإياك والاستسلام لبراثن اليأس والإحباط. وهناك فارقٌ بيّنٌ الخنوع والتكيف، فأنت تعايش واقعك وترضى به لا من باب القناعة، بل لفقدان وسائل التغيير الممكن، وتهيئ نفسيتك بهذا القبول لصبر أطول، وتدربها على الحاضر، وتصبح قادراً على الاستمرار بعيداً عن عثرات التذمر والشكوى التي لا فائدة منها، كم كان مزعجاً إكثار بعض الأسرى من الحديث عن الماضي، عما كانت عليه السجون من وفرة وسعة قبل الحرب، نعم؛ هو أقل سوءاً مما نحن فيه لكنّه يبقى سجناً، ثمّ إنّ الإكثار من هذا الحديث يورث الحسرة، تتقهقر معه نفس الأسير وتتراجع روحه، وتدفعه إلى التقوقع والانكماش، دون أن يكون الثمن استعادة الماضي أو إصلاح الحاضر، بل خسارة كليهما، والتكيف هو فن الممكن وسياسة الواقع، وبشيء من الحكمة والتدبير يمكن أن تصنع من الموارد القليلة المتاحة بين يديك واقعاً يفوق قيمة تلك الموارد، شرط أن تنظر بعين الإيجابية وتحاول تغيير الظروف بتحسين نفسك أولاً.

"**لا أسف على شيء بعد القشاطة**" عنوان من عناوين الصمود، حكاية عاشتها غرفتنا بدأت بمأساة وانتهت بفرج، صرتم تعلمون الآن أنّ إدارة السجن لم تبقِ لنا شيئاً، ولم تترك لنا ما يمكن أنْ ننتفع به، بعض المصادرات أحرقت كما أخبرتكم،

وبعضها ألقي في غرفة معزولة من غرف القسم، ومما كان ممنوعاً إلا بقرار مدير القشاطات "مدير القسم" استعمال القشاطة ووجودها طوال اليوم في الغرفة، على الرغم من أنّها حاجة ضرورية، فالمرحاض موجود في الزاوية الداخلية للغرفة مع المغسلة، ولا يوجد فيه مصرف لتصريف الماء الذي يتجمع نتيجة الاستعمال الكثيف، فنحن 12 أو 13 رجلاً، فالقشاطة ضرورة لتصريف الماء إلى خارج المرحاض، حيث المصرف الوحيد في الزاوية المقابلة له، وإلا انتشر الماء وبقعه في كلّ أرجاء الغرفة مع الخطى، إضافة إلى حاجتنا لكنس أرض الغرفة مرتين يومياً على الأقل، بسبب ما يتساقط من لحانا الطويلة، ومن شعرنا الكثّ، ومن أجسادنا من الشعر، وما يفلت من أيدينا من فتات الطعام، أمور قد تجتذب الحشرات فيحسن التخلص منها سريعاً.

القشاطة غير متوفرة إلا في وقت محدد إذا كان المدير موجوداً ليمنح الإذن، استطعنا نحن وغيرنا أنْ نختلس قشاطة من مكان تجميعها، وتمكنا من الاحتفاظ بها وإخفائها عن أعين الإدارة، فعشنا فترة من رفاهيتها والتنعم بفوائدها، نكنس الغرفة، ونصرف الماء، ونحظى بنظافة ملكية تفتقدها غرف الفقراء التي لم تستطع اختلاس واحدة مثلنا، بعد أيام السعادة ومع تفتيش مفاجئ ضبطت القشاطة، ويا لهول المصيبة التي حلّت بنا! دخلنا في حالة من الحزن الشديد والكآبة، وشعرنا بضيق واختناق، كاد بعضنا يبكي أو قد يكون بكى حقّاً، عوقبنا بإغلاق الغرفة أسبوعاً كاملاً بعد جناية حيازتنا لقشاطة دون ترخيص، لم نأبه للعقوبة بل لفقداننا شيئاً عزيزاً مثل القشاطة، مرّت ساعات ونحن جميعاً على هذه الحال، قبل أنْ يعود بعضنا إلى رشده وسكينته، اجتمعت مع هؤلاء الذين تجاوزوا سوداوية الموقف، تشاورنا، وخرجنا بقرار لم يعارضه أحد، سنستعمل ممسحة نضعها أسفل المغسلة داخل الحمام، بهدف أنْ تمتصّ الماء ونقوم نحن بعصرها في مكان التصريف، وهكذا نمنع تراكمه طوال النهار، تبرع أحد الأثرياء بنصف منشفته لذلك الغرض، لقد كان يملك منشفة طويلة عريضة، بينما نملك نحن المساكين منشفة وحيدة صغيرة لكلّ واحد منّا، بدأنا العمل، مضى اليوم الأول والثاني، واكتشفنا أنّنا لسنا بحاجة إلى القشاطة، الجميع عاد إلى السعادة وخرج من الأزمة، صارت ممسحتنا تنظف أرض المرحاض وتلمعه ولم نحتج معها إلى سحب الماء خارجاً، نظفنا حمامنا وغرفتنا وتفوقنا على المنع، شعرنا بنشوة

المنتصر، واغتبطنا لما فعلناه، وصارت عبارة المواساة بيننا: "لا أسف بعد القشاطة"؛ فقد كثرت أحداث فقدان الموارد التي كنّا نستردّ بعضها خلسة من مكان تجميعها، إذا سرقت الإدارة من أحدنا علبة شامبو، أو قارورة ماء بلاستيكية، أو صادرت صابون اليدين أو حبل غسيل، كنّا نواسي المصاب بقولنا: "لا أسف بعد القشاطة"، وإذا حرمنا جماعة من شيء مثل علب اللبنة الفارغة التي كنّا نغسلها ونعيد استعمالها لمصلحة الغرفة في تقديم الطعام وحفظه، نظر بعضنا إلى بعض وقلنا: "لا أسف بعد القشاطة".

لم نكن نسخر من أنفسنا بتلك العبارة، بل كنّا نستحضر القصة بعبرتها وتحولها من حزن وجرح نفسي إلى واقع جديد أفضل، تكيفنا مع غياب القشاطة ووجدنا البديل، وقمنا بتحسين ظروفنا، ما يعني أنّنا قد نستطيع فعل هذا مع كلّ عارض وموقف، وأنّه يمكن أنْ نجتاز التحديات، ونعوض النقص إذا فكرنا ولو بأبسط الأمور التي لا نلقي لها بالاً من حولنا.

4. الشعور مع أهل غزة:

الفظائع التي ارتكبها العدوان الصهيوني على غزة لا نظير لها، فصارت، وهي الخطوب الجسام التي لا تحتمل، عزاء لنا في محنتنا، يا لغزة، حتى في أحلك ظروفها تكون عوناً للأسرى، أعانتنا بما رجونا ألا تعيننا به، جراحها واست جراحنا، وعذاباتها خففت من عذاباتنا، وجوعها جعلنا نسكت عن قلة الزاد عندنا، كنّا نستحي أنْ نتألم أو نشكو إذا سمعنا بأخبارهم، نتوارى ونفرّ من الوجع خجلاً من صبرهم الجميل، قتلوا فاحتسبوا، جرحوا فربطوا جراحهم ومضوا، هدمت دورهم فلم يجزعوا، وشردوا فما استكانوا وما وهنوا، وشتت شملهم فازدادوا إيماناً، قدوتهم ومثالهم نبوي الصفات، رباني البركات، فعجباً لمن رآهم كيف يفقد إيمانه!

أهل غزة دفعونا إلى أنْ نتقبل كلّ شيء لحق بنا كي نتشبه بثباتهم، ومدرستهم علمتنا كيف نعضّ على الجراح في سبيل الغاية، إنّ شيئاً كثيراً من معاناة أهل غزة هو من أجل الأسرى، أفلا نقف معهم بصبر وشجاعة وصمود؟ أما الأخبار التي عاودتنا من حين لآخر عن بطولاتهم قولاً وفعلاً فهي دافع لا يضاهى، وطاقة متفجرة داخل

كلّ منتمٍ لهذه القضية، ومُلهم روحاني لمن يبحث عن هدوء روحه، صرنا نعدّ أنفسنا من أهل السلامة، ونتأمل حالهم كلّما ضاق بنا الحال فيهون علينا المصاب، وتنفرج في أعيننا الكروب، واحدهم لا يأمن إنْ أمسى أنْ يصبح، وإن حصل على طعام لا يدري أيعيش ليأكله أم لا، حياتهم ومنجزاتهم تنسف كلّها دفعة واحدة، وبعد ذلك ينفضون عنهم غبار الاستسلام ويصيحون بإباء وشموخ: "فداء للأقصى، فداء للأسرى، فداء للدين وللوطن"، وهيهات هيهات أنْ نبلغ شأوهم، لقد عزينا أنفسنا أنّ أكثرنا ضرراً أحسن حالاً من أكثرهم راحة، فهل يتبقى بعد ذلك من شيء يقال؟!

مصادر الأخبار عند الأسرى

أول شهرين من الاعتقال كان الأسرى قد استطاعوا إخفاء بعض أجهزة الراديو الصغيرة مع بعض البطاريات، واستعملنا تلك الأجهزة بحذر شديد وضمن إدارة ذكية، حرصت على التقليل من وقت تشغيل الراديو لإطالة عمر البطاريات، ومنع الإدارة من ملاحظة الأمر، فشحن البطاريات مهمة صعبة ومحفوفة بالمخاطر، مع مرور الوقت دخلنا في استنزاف لهذه الأجهزة، كثرت التفتيشات، واستعرت الملاحقة، وكان جهاز الراديو هدفاً أساسياً منها، وازداد الأمر صعوبة وتعقيداً مع فقدان الأسرى أماكن الإخفاء مع جدران الغرف العارية، إلا أنهم لم يعدموا الوسيلة، صمدت بعض الأجهزة لفترات، وتناقصت يوماً بعد يوم، وكلّما عثرت الإدارة على جهاز راديو أو على بطاريات في مخبأ ما عممت ذلك المخبأ، وطلبت من فرق التفتيش البحث فيه في كلّ الأقسام، شهران مدة صمود أجهزة الراديو انقطع بعدها هذا الشريان عن قسمنا، وعن أغلب أقسام السجن، قليلٌ من الأقسام احتفظ بجهاز راديو واحد مدة ستة أشهر، لكن بتضحية كبيرة وثمن باهظ، ضرب وتنكيل وتعذيب واقتحامات كبيرة، وتفتيشات مفاجئة، من أجل انتزاع جهاز راديو واحد يطلّ منه الأسرى على العالم.

الوسيلة الثانية لتلقي الأخبار كانت الاستجواب، حيث يخضع الأسير القادم الجديد من خارج السجن لتحقيق متكامل الأركان وإنْ كان يتصف بالنعومة واللطف، نستقبل الأسير الذي بالكاد يلتقط أنفاسه من وعثاء رحلة الاعتقال وعذاباتها، ثمّ نمطره بأسئلة كثيرة عن كلّ ما يخطر في بال الواحد منّا، نريده حافظاً ثبتاً ثقة ينقل لنا كلّ ما فاتنا أو نظنّ أنّه فاتنا، هكذا فعل الأسرى معي، وهكذا صرت أفعل أنا وهم مع من جاء بعدي، نسأل عن غزة بأحيائها ومخيماتها وشوارعها وأزقتها، عن أهلها ومقاومتها، نسأل عن الضفة وتفاعلها، عن المقاومة فيها، عن التضامن والمسيرات، ثمّ نسأل عن عيش الناس وهمومهم، وتأثرهم اجتماعياً واقتصادياً بالحرب، نسأل عن المواقف السياسية، عن الخطابات والكلمات والتصريحات، عن إطلالات أبي عبيدة وبيانات أبي مازن، نستعلم عن أسعار العملات، والمواد التموينية، والمواصلات،

نصل إلى روسيا والصين وإلى أبعد من ذلك، نسأل عنهم وعن مواقفهم، لا نترك شاردة ولا واردة إلا استوقفنا الأسير عندها.

وبعدُ، فإنّنا لا نتركه لشأنه، فهو في نظرنا محلل سياسي، وخبير اقتصادي، وناشط اجتماعي، عليه أنْ يزودنا برؤيته لما آلت إليه الأوضاع الراهنة، وكيف ستتطور الأحداث، وإلى أين تتجه، هل تكفي التجاذبات الموجودة لتمزيق النسيج الاجتماعي لدولة الاحتلال؟ وهل الوضع الاقتصادي مستقر أم متهالك؟ وغيرها من الأسئلة ونقاط الاستفهام، نظلّ قائمين على رأسه إلى أنْ نعصره بكلّ ما تعنيه الكلمة من معنى، ولا نوفّر قطرة واحدة من المعلومات إلا استقيناها، والأسير الجديد كحالي أول يوم لي في السجن، يجيب باستغراب، ثمّ ما يلبث طويلاً حتى يدرك مدى تعطشنا لأيّ معلومة، ولهفتنا لأدنى خبر، ومعاناتنا مع الربع الخالي المستحدث لنا برمال من القطيعة والعزلة التي ألقانا الاحتلال فيها.

حاربتنا إدارة السجون في هذا المصدر للأخبار، فقد كاد يكون هناك قادم جديد يومياً، تتصل حلقات الأيام ونتابع مع الأسرى الجدد الأحداث، فأوقفت الإدارة إدخال الأسرى الجدد إلى الأقسام، وأصبح القادمون إلينا منقولين من أقسام أخرى، فانقطعت بنا السبل، ولم تبقَ لنا إلا نافذة المصدر الثالث وهو زيارات المحامين للأسرى، وهذا مصدر بطيء متباعد غير متاح للجميع وغير منتظم، يهمس المحامي في أذن الأسير ببعض الأخبار بعد الاطمئنان عليه، عناوين موجزة قصيرة، تلخص أسبوعاً أو أكثر من الأحداث الجارية بسرعة، نلتقطها من فم الأسير ثمّ ندخلها إلى استديو الأخبار وقسم التحرير، فنشبعها دراسة وبحثاً وتحليلاً ونقاشاً، ونملأ بها فجوة الفضول العملاقة لدينا، لاحقتنا الإدارة إلى هذا الثقب الضيق فسدّته، امتنع المحامون عن نقل الأخبار، لقد تعرضوا للتهديد بالعقوبات والمنع من مقابلة موكليهم الأسرى إذا هم خالفوا قرار منع وصول الأخبار إلى داخل السجون، لم يكن حصاراً بل كان دفناً في الحياة، وقتلاً بصمت، وسدّاً لأضيق السبل التي نتنفس منها.

الآن وبعد 11 شهراً من بداية الحرب باتت مصادر الأخبار شبه معدومة، وإنْ وصلت بعضها إلينا تصل ناقصة أو مشوهة أو غير صحيحة، خبر مثل استشهاد القائد إسماعيل هنية رحمه الله وهو خبر ضخم في أهميته، تكفي ثلاث كلمات لصياغته، لم يصل إلينا إلا بعد ثلاثة أيام، ولم نعلم شيئاً عن ظروف استشهاده وتفاصيل الحدث

مطلقاً، خبر مجرد عن استشهاده دون أيّ تفاصيل، وبقيت أدمغتنا مشغولة في أسئلة لا تنتهي عن مكان استشهاده، وكيف تمّ اغتياله، وهل كان هجوماً تبنّته "إسرائيل"، أم أنّه ضربة استخباراتية مجهولة الهوية، بعد ثلاثة أيام تالية امتلأت بالمباحثات والمناقشات حول الخبر عرف الأسرى أنّ الاغتيال وقع في إيران، خرجت من السجن دون أنْ نعرف أيّ جديد بعدها، استشهد إسماعيل هنية في إيران، هذا هو كلّ ما استطعنا أنْ نعرفه وبتقسيط لم يكن مريحاً.

يوم الحرية

يرتجف قلب الأسير الإداري كلّما اقترب موعد أحد تمديداته من النهاية، معاناة سجلتها لكم، لكنّ الأمل يدفعه إلى الأرق آخر أيامه، كطفل صغير يملك شيئاً يحبه، يمسك به ويخشى أنْ يفلت منه، يسهر الأطفال ليالي الأعياد وهم يتخيلون أنفسهم في ثيابهم الجديدة، وهم يحصلون على العيديات والهدايا، وهم ينفقون وقتهم ومالهم في اللعب والمرح، وكذلك الأسير، يسبح في خيال ممتد، يرسم الأحلام ويبني الخطط، يريد أنْ يعوض ما خسره من عمره، وأنْ يستدرك ما فاته، تغلب عليه الحيرة وهو يتخيل ساعة اللقاء الأول، كيف سأنظر في عيني أمي، وكيف سأستنشق رائحة أبي، ماذا إنْ عاتبتني ابنتي بحضن قوي، وماذا عن ابني الذي حملته مسؤولية البيت ومسؤوليتي، وهل سأصمد أمام نظرات زوجي، أشياء لا يفكر فيها الناس، ولحظات كنّا نغفل عن حرارتها مع العادة، وحين تصمت هذه العواطف تصخب هواجس أخرى، مشاريع في العمل، ومخططات للحياة، وبرامج رياضية وعلمية وثقافية، وإقبال على كلّ شيء، وفوق ذلك نظرة إلى المستقبل، وتزيينه بكلّ ما تطمح إليه النفس وتصبو إلى تحقيقه.

جاءتني الإشارة الأولى وخبر الإفراج المبدئي عند الساعة الثالثة يوم 2024/8/25، هويت لشكر الله ساجداً، ثمّ التف حولي إخواني يهنئونني، ويشاركونني فرحي بدنو ساعة الخلاص، وقفت بينهم تلك اللحظات أعانق في أجسادهم أرواحاً لن تغيب عن خاطري، وألامس نفوسهم التواقة إلى الحرية مثل نفسي، أقترب من حرارة الأنفاس، وأستشعر دفء الحب من الإخوان، وأكتم فرحي الغامر ما استطعت، فهم يجهدون لأرى منهم ابتسامة يطاردها واقع مؤلم لم ينتهِ بعد، جالت في خاطري حينها خاطرتان:

الخاطرة الأولى: عن مفارقة الموقف الذي أقف فيه لحظة رفعت رأسي من سجدة الشكر، هذا التضارب في المشاعر، والانفصام في الملامح، حتى يكاد وجهك ينشطر إلى نصفين، نصف يضحك ونصف يبكي، عين تألق وعين تدمع، شعور متضارب متناقض اجتاحني ورأيته في أعين إخواني، أنا الخارج إلى الحرية أغالب فرحي بخوفي على مشاعر من سأتركهم ورائي، وهم يغالبون حزنهم ليشعروني بالفرح، ينثر واحدهم ابتسامة على شفتيه، ويغالب دمعة تحاول الإفلات من عينيه، ليس حسداً أو كرهاً أن يصيبني خير من الله، بل مزيج من الإحساس بالفقد، والشعور بالغربة ساعة الفراق،

ورغبة في أن يكون الجميع في هذه اللحظة الغامرة، رغبة جارفة في الخلاص، عدت إلى نفسي فوجدتني أقاوم وأدافع، وأتهمها إذ خدشت خشوعهم بفرحي، لم أقصد ولم أرد إيذاء قلوبكم يا إخوتي، وددت لو أنّني خرجت بصمت، يعتذرون إليّ وأعتذر إليهم بعبارات المواساة وكلمات الوداع الرقيق، موقف آخر عصيب، كلّه حرقة ولوعة وألم، هو بتناقضه ومفارقاته شيء من طبع الإنسان وطبيعته، لا يعيبني أو يعيب إخواني الأسرى أنْ نكون كذلك، فنحن بشر لنا دوافعنا وذواتنا ومشاعرنا، لا ألوم دمعة حزن شخص على نفسه، ولا أعاتب قلباً يخفق شوقاً للحظة التي كنت فيها، بل أتألم وأحزن وآسف لأنّني كما هم لم نملك من أمرنا شيئاً، ووضعنا الاحتلال في هذا الحرج والاضطراب والتناقض.

الخاطرة الثانية: كانت بعد تأكد خبر الإفراج، وهي الإحساس الذي دخل عليّ، لقد تغير الدم الذي يجري في عروقي، صرت رجلاً آخر في لحظات، ومع بدء إجراءات الإفراج وصولاً إلى لقاء الأهل والأحباب؛ تلاشت أيام السجن الطويلة بما فيها، واندثرت الآلام، وتدفقت الحياة بعنفوان إلى جسدي، وشعرت بقشعريرة ناعمة تدغدغ أوصالي وتخبرني بقدرتي على الطيران بجناحي الحرية، منذ اللحظة الأولى لهذا التغير تذكرت حديث رسول الله ﷺ عن أكثر أهل الأرض شقاء من المؤمنين، وعن أنعم أهل الأرض من الكافرين، يغمس هذا في الجنة وذاك في النار، فينسيان كلّ ما لقياه أو عاشاه من بأساء ومن نعمة، وكأنهما لم يمرّا بشيء من ذلك قطّ، لست أشقى أهل الأرض، لكنّني نسيت ساعات الشقاء وأيامه وشهوره في لحظة واحدة.

كهرباء المشاعر الجياشة لمستني لحظة رأيت مشهد الحياة، رأيته واقعاً لا تعزله أسوار ارتفاعها 18م من الجهات الأربعة، رأيت السماء كما هي لا رقعة تقطعها الأسلاك التي تسقف فضاء السجن، وازداد سريان العواطف مع أول لمسة لأيادي الأهل والأحباب، الشوق والحنين والحب في أبهى الصور وأجمل الحلل، تخيلت وأنا المسجون في عوفر غرب رام الله أنّني سأجد سيارة أو اثنتين تنتظرانني مع عدد قليل من المستقبلين، منزلي في الخليل، والمسافة بين المدينتين تقارب ثمانين كيلومتراً، تقطعها الحواجز العسكرية والتجمعات الاستيطانية، التي تهدد المارة وتعترض الناس وتبثّ فيهم الخوف وشعوراً بالخطر الدائم، وجدت في استقبالي 15 سيارةً محملة بالعشرات من الأهل والأحبة، أسرتي، إخوتي وأخواتي وأبنائهم، بعض من

الأحبة والأصدقاء، عاتبتهم على تجشم السفر في ظروف غير آمنة للقائي، أخبروني بدفء أنّ هذا العدد معظمه ممن تسربوا خفية وسراً، بعد أن اتفق الجميع على تحديد عدد المستقبلين، ومن رغبوا في الخروج ولم يتمكنوا أكثر بكثير ممن فعلوا.

أتذكر الآن كيف كانت نظراتهم إليّ من بعيد، القلق والخوف المشبع بالإنكار يبدو على الوجوه، الملامح اكتست باستفهامات كثيرة، كلّما دنوت منهم خطوة رمقوني بعين ذاهلة، هل هذا هو ذاته الذي نعرفه وننتظره منذ عشرة أشهر؟!! التغيير الطارئ أكبر من القدرة على استيعابه، خطوات أخرى، سمعوا صوتي، تلقوا كلماتي، تلمسوني في أحضانهم وعناقهم، وجدوا روحاً لم تهزمها القسوة ولم ينلها الهزال كما نال الجسد، روحٌ أنستهم البنية الهزيلة، والحال الرثة، والمنظر غير الأليف الذي رأوه، روح حفظ الله فيها سرّ الحياة، وأبقاني بها لأعيش هذه اللحظات وأرويها، فللّه الحمد من قبل ومن بعد.

وصلتُ إلى الخليل، فأعطاني الاستقبال الحافل بالودّ حافزاً جديداً لأؤمن أنّ الشعب الفلسطيني وفيّ، وعنده من المشاعر ما يكفي ليحتفظ بانتمائه لأرضه ووطنه ومقدساته وكلّ ما يتصل بها، وفود من الأهل والأقارب والجيران والمجتمع حضرت لتطمئن عليّ، ولكي تتعاطف معي، بل مع الأسرى كلّهم، عرفت عندها أنّ الخوف على الأسرى كان عاماً، لما تسرب من أخبار وصور ومعلومات، خوف لم تستطع الأنباء الشحيحة أنْ تزيله، فكما كنّا معزولين في السجن عن العالم، كان العالم كلّه ممنوعاً من معرفة حقيقة الحياة داخله، تعاطف وتضامن جرى عليّ جريان البلسم الشافي على الجرح، فالْتأمَ من جراحات النفس الكثير، وتداوت الروح بلقاء دافئ ونظرات حانية وأكفّ مسحت من وجداني مثاقيل كالجبال من التعب والمعاناة.

حدثتكم عن مخططات قررت تنفيذها عند الخروج من السجن في أثناء أرق الليالي الأخيرة، إحدى تلك الخطط قضاء إجازة مدتها أسبوع، أعود بعدها للقيام بعملي الذي أحب، ومركزي الطبي الذي أشتاق إليه، مدة ظننت في نفسي أنّني أبالغ فيها، وما إنْ خرجت حتى اكتشفت نفسي من جديد، بدأت أتعرف إليَّ وأنا الذي لم أفارق نفسي، فكيف بمن فارقتهم! المرآة حدثتني بما لم أرَ من قبل، ملابسي ما قبل السجن، أدواتي، كلّ شيء تغير عليّ وكأنّني حديث عهد به، المقاسات القديمة واسعة جداً، وما اعتدت أن أستعمله بدوت كأنّني أعرفه لأول مرة، كأنّني غريب عليّ، وهكذا نظر إليّ

الناس، وهم الذين غبت عنهم عشرة أشهر من القهر والحرمان غيّرت خريطة جسدي، فصاروا ينظرون إليّ باستغراب تمزجه الشفقة، وفوق ذلك جسدي لم يطاوعني، لقد كان نشاطه داخل السجن محدوداً، وكان قادراً على القيام به، فلما حاولت الانطلاق إلى الحياة خذلني، وظهرت فيه عيوب لم أحسّ بها من قبل، خصوصاً مع استمرار اضطرابات النوم، وفقدان قدرتي على النوم المتواصل لساعتين، وفي أحوال نادرة لثلاث ساعات، وما أجمعه من حصص النوم المتفرقة لا يتجاوز خمس ساعات ممزقة لا تغني من تعب، ولا تحفظ من إرهاق، علمت أنّني بحاجة إلى ترميم بدني، وإلى إصلاح روحي والمصالحة معها ومع صورتي الجديدة، فمددت الإجازة أسبوعاً آخر، وأنصح الآن إخواني وكلّ من تصل إليه كلماتي، من استطاع أنْ يقضي إجازة أطول فلا يبخل على نفسه، فإنّه يحتاج إليها ويستحقها.

الأسرى الذين فارقتهم رافقتني صورهم، واصطحبت معي أخبارهم، وقد سرني أنْ أكون رسول طمأنينة يهدئ نفوس الأهالي ويروي ظمأهم شوقاً إلى أبنائهم، زارني كثير من أهالي الأسرى وشاركوا في استقبالي يسألون عن ذويهم، ورأوا فيّ صورة أبنائهم المعتقلين، ومما أشعرني بالغبطة الحال المتآلف من أهالي الأسرى؛ حيث اجتمعوا في صفحات على مواقع التواصل الاجتماعي، واتفقوا على شراكة في مجموعات الواتساب، كلّ سجن ينشئ الأهالي لأنفسهم مجموعة يضعون فيها الأخبار، أدرجت زوجتي رقم هاتفي الخاص على المجموعة، مرفقاً باسمي وعنوان إقامتي: سجن عوفر، قسم 18، الغرفة 2، وطلبت من الأهل أنْ يتواصلوا معي عبر رسائل الواتساب الصوتية أو المكتوبة؛ فاستقبال اتصالات من 120 شخصاً من أهل أسرى كانوا معي في القسم نفسه سيكون أمراً مرهقاً، وفعلاً انهالت في لحظات أكثر من مئتي رسالة، أكثر من 70% منها جاء من أمهات الأسرى، ونحو 25% من زوجاتهم، وكثير من الأسرى ليسوا متزوجين، أما الباقي فمن الآباء والأخوات والإخوة، الرجال حضر بعضهم فسأل بنفسه، وهم أكثر صبراً وأناة، أما الأمهات فلا يطقن صبراً عن خيط يربطهن بفلذات أكبادهن، وكذلك الزوجات اللواتي يفتقدن سندهن وعماد بيوتهن، تفرغت للإجابة على استفسارات الجميع، من عرفتهم طمأنتُ أهلهم، وشرحت لهم ظروفهم وأحوالهم، وما طرأ عليهم، وما وصلوا إليه من أعمال أو إنجازات، ومن لم أعرفه هدأت روع أهله وبثثت فيهم الأمل، دون أنْ أكذب أو أراوغ، فالأسرى بخير من ربهم، وعلى أمل قريب بالحرية إنْ شاء الله.

هذه اللحظات الأخيرة من زفراتي وأناتي وهمساتي في هذا الكتاب، أريد أنْ أطويه وأطوي معه سيرة من النضال أعتزّ بها ويعتزّ بها كلّ أسير قضى بعض عمره في هذه المرحلة أو غيرها، سيرة ليست للنسيان، وتجربة لن أتنكر لها وإنْ كانت سوداء في ظواهرها، أقف الآن لأودع الأسرى وحديثهم الذي يطول، أطول من قدرة هذه الصفحات، وأعمق مما تطيقه الكلمات، وقبل أنْ أترك المنبر أحب أنْ أبشر أهلي وإخواني، فهذه المرحلة من السجن سيكون تأثيرها واضحاً على الأسرى وعلى مجتمعاتهم الضيقة وعلى المجتمع كلّه، وذلك في بضع نقاط إيجابية أجملها في الآتي:

1. عمل الأسرى في هذه الفترة على بناء شخصياتهم، وإعادة صقل مهاراتهم، وحرصوا على تطوير مواهبهم وقدراتهم، فازدادت ثقافتهم، وتوسعت خبراتهم، وانفتحت مداركهم، وأتقنوا أشياء كثيرة لم يكونوا على اضطلاع بها من قبل، وهذا سيعود عليهم وعلى عائلاتهم وعلى محيطهم بالنفع والخير العميم.
2. تغيرت نظرة الأسرى إلى الحياة، وتغيرت أهدافهم فيها، فصاروا أكثر جدية، وانصرفوا عن توافه الأمور وساقطها، وعقدوا العزم على إتمام أعمالهم واستكمال مشاريعهم والإضافة إلى مجتمعاتهم، ونشر النفع والفائدة بين الناس.
3. لن ينقضي العام الأول بعد 2023/10/7 إلا وتخرج السجون مئات من حفاظ كتاب الله لم يكن ذلك في حسبانهم بل كان حلماً لا يجدون السبيل إلى تحقيقه، إضافة إلى الآلاف ممن بدأوا الحفظ وأتموا حفظ بضعة أجزاء، وآلاف غيرهم أتقنوا تلاوة القرآن وتجويده.
4. صار عند الأسرى إحساس مضاعف بالمسؤولية، ودافعية دائمة إلى النقد الذاتي والتقييم الداخلي، فهم ينظرون إلى الأمور بمنظار مختلف الآن، ويبحثون في علل الأشياء ونتائجها وتفسيرها، ويقفون عند الأحداث بفكر ناقد وتأمل عميق.
5. ما تعرض له الأسرى من الأذى الشديد والعذاب الأليم كشف لهم دون الحاجة إلى تمحيص أو تدقيق زيف الوجه الذي أظهره الاحتلال طويلاً، فهم خبروا بأنفسهم وجهه الحقيقي، واحتفظت ذاكرة أجسادهم بكثير من مواطن الألم والوجع، أمر سيحفظونه وسينقلونه وسيشهد عليه من يخالطهم، فتزداد سوأة الاحتلال انكشافاً، ويتحول رفضه وإنكار سلوكه إلى قناعة جمعية عامة، ترفض التعايش معه أو تقبله، وتهيئ النفوس للخلاص من قيده والتحرر من قبضته.

سلاماً لأرواحكم المعلقة بقناديل النجوم تناجي ربها بخشوع، سلاماً لأنات اشتياقكم تناغي صور أطفالكم ترتسم في وميض القمر أو شعاع الشمس، سلاماً عليكم آل الصبر وأنتم تجتازون المحن، تحية الإكبار لمجدكم، والاعتزاز بصبركم، ووقفة الشرف عند حضرتكم، والوفاء لتضحياتكم، أسكب حبري في ختام هذا الألم وأنا أمسك بدمعة لا أريد أنْ تمحوه، أرجو أنْ أكون وفيت لمعاناتنا بحقّها في أنْ تعرف، وألا أكون قصرت في واجب الوقوف إلى جانبكم، فأنا لستُ هنا إلا شاهداً نطق عنكم وإنْ كان يظهر من حين إلى آخر بشخصه، واحداً منكم، وظلّاً لكم، فارقكم بجسده واحتفظتم بشيء من روحه ونفسه بينكم، طبتم وطاب ذكركم، ولقاؤنا بكم قريب عاجل، أعزة كرماء محررين بإذن الله.

فهرست

(أ)

أبو السباع، هاني (أبو مجاهد)، 35–36، 76

أبو سنينة، سعيد عطية، 84

أبو سنينة، صفوان طه، 28

أبو عرفة، معاذ، 36

أبو غوش، عمرو، 55

أوروبا، 22

إيران، 96

(ب)

بدر، محمد، 85

بلّوط، براء، 36

بلّوط، نضال، 36–37

بن جفير، إيتمار، 39

بيت لحم، 28

بيروت، 20

(ج)

جامعة البوليتكنك، 36

جهاز الأمن العام الإسرائيلي (الشاباك)، 51، 54، 65

الجولاني، فتحي، 48

الجيش الإسرائيلي/ قوات الاحتلال، 27–28، 66، 68

(ح)

الحركة الأسيرة الفلسطينية، 18–20، 39، 64

حركة حماس

– كتائب عز الدين القسام، 20

حمدان، عرفات ياسر، 48

الحموري، أمجد، 49

(خ)

الخليل، 28، 36، 98–99

(ر)

رابطة علماء فلسطين، 67

رام الله، 48، 85، 98

ربيع، عقل، 76–77

روسيا، 95

(ز)

الزين، عزّ الدين، 36

(س)

سجن عوفر، 33–35، 43–44، 46، 57، 60، 98، 100

سجن النقب، 44، 57، 60

سدلة، عمرو، 77

(ش)

شاور، مصطفى، 67

(ص)

الصين، 95

(ض)

الضفة الغربية، 24، 27–28، 36، 94
الضيف، محمد، 21

(ع)

العاروري، صالح، 20
عباس، محمود (أبو مازن)، 94
عبيّات، عبد الله، 36
عكاشة، كمال، 25–27
عياض، الفضيل بن، 53

(غ)

غنيمات، أحمد، 50
غيث، لؤي، 50

(ق)

قطاع غزة، 20–21، 23–27، 29–31، 34، 36، 39، 57، 60، 79، 92، 94
القواسمي، إيهاب، 48

(م)

المبارك، عبد الله بن، 53
المحكمة العليا الإسرائيلية، 43، 45، 47، 49، 70
محمد (صلى الله عليه وسلم)، 15، 49، 75، 84، 88، 98
المدينة المنورة، 75
مصر، 15
معركة الأمعاء الخاوية، 18
معركة طوفان الأقصى، 20–22، 84
معسكر عتصيون، 28، 31، 33–34، 38، 46
مكة المكرمة، 75

(ن)

النتشة، نبيل (أبو نعيم)، 55
النّحشون (قوات نقل الأسرى)، 51، 52، 55، 60

(هـ)

هنتنغتون، صموئيل، 85
هنية، إسماعيل، 95، 96
هيئة شؤون الأسرى والمحررين، 69–70

(و)

الولايات المتحدة الأمريكية، 22

إصدارات مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات

الإصدارات باللغة العربية:

أولاً: سلاسل الكتب (100 مجلداً وكتاباً):

1. **سلسلة التقرير الاستراتيجي الفلسطيني**، صدر من هذه السلسلة 13 مجلداً، تغطي الفترة 2005–2023.
2. **سلسلة الوثائق الفلسطينية**، صدر من هذه السلسلة 7 مجلدات، تغطي الفترة 2005–2011.
3. **سلسلة اليوميات الفلسطينية**، صدر من هذه السلسلة 10 مجلدات، تغطي الفترة 2014–2023.
4. **سلسلة أولست إنساناً**، صدر من هذه السلسلة 13 كتاباً.
5. **سلسلة تقرير معلومات**، صدر من هذه السلسلة 30 كتاباً.
6. **سلسلة ملف معلومات**، صدر من هذه السلسلة 11 كتاباً.
7. **سلسلة دراسات علميَّة محكَّمة**، صدر من هذه السلسلة 16 كتاباً.

ثانياً: كتب عامة (106 كتب):

1. وائل سعد، **الحصار: دراسة حول حصار الشعب الفلسطيني ومحاولات إسقاط حكومة حماس**، 2006.
2. محمد عارف زكاء الله، **الدين والسياسة في أميركا: صعود المسيحيين الإنجيليين وأثرهم**، ترجمة أمل عيتاني، 2007.
3. أحمد سعيد نوفل، **دور إسرائيل في تفتيت الوطن العربي**، 2007، ط 2، 2010.
4. محسن محمد صالح، محرر، **منظمة التحرير الفلسطينية: تقييم التجربة وإعادة البناء**، 2007.
5. محسن محمد صالح، محرر، **قراءات نقدية في تجربة حماس وحكومتها 2006–2007**، 2007.
6. خالد وليد محمود، **آفاق الأمن الإسرائيلي: الواقع والمستقبل**، 2007.
7. محسن محمد صالح، محرر، **منظمة التحرير الفلسطينية والمجلس الوطني الفلسطيني: تعريف – وثائق – قرارات**، 2007، ط 2، 2014.
8. حسن ابحيص ووائل سعد، **التطورات الأمنية في السلطة الفلسطينية 2006–2007**، ملف الأمن في السلطة الفلسطينية (1)، 2008.

9. محسن محمد صالح، محرر، **صراع الإرادات: السلوك الأمني لفتح وحماس والأطراف المعنية 2006–2007**، ملف الأمن في السلطة الفلسطينية (2)، 2008.
10. مريم عيتاني، **صراع الصلاحيات بين فتح وحماس في إدارة السلطة الفلسطينية 2006–2007**، 2008.
11. نجوى حساوي، **حقوق اللاجئين الفلسطينيين بين الشرعية الدولية والمفاوضات الفلسطينية – الإسرائيلية**، 2008.
12. محسن محمد صالح، محرر، **أوضاع اللاجئين الفلسطينيين في لبنان**، 2008، ط 2، 2012.
13. إبراهيم غوشة، **المئذنة الحمراء**، 2008، ط 2، 2015.
14. عدنان أبو عامر، مترجم، **دروس مستخلصة من حرب لبنان الثانية (تموز 2006): تقرير لجنة الخارجية والأمن في الكنيست الإسرائيلي**، 2008.
15. عدنان أبو عامر، **ثغرات في جدار الجيش الإسرائيلي**، 2009.
16. قصي أحمد حامد، **الولايات المتحدة والتحول الديموقراطي في فلسطين**، 2009.
17. أمل عيتاني وعبد القادر علي ومعين منّاع، **الجماعة الإسلامية في لبنان منذ النشأة حتى 1975**، 2009.
18. سمر جودت البرغوثي، **سمات النخبة السياسية الفلسطينية قبل وبعد قيام السلطة الوطنية الفلسطينية**، 2009.
19. عبد الحميد الكيالي، محرر، **دراسات في العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة: عملية الرصاص المصبوب/ معركة الفرقان**، 2009.
20. عدنان أبو عامر، مترجم، **قراءات إسرائيلية استراتيجية: التقدير الاستراتيجي الصادر عن معهد أبحاث الأمن القومي الإسرائيلي**، 2009.
21. سامح خليل الوادية، **المسؤولية الدولية عن جرائم الحرب الإسرائيلية**، 2009.
22. محمد عيسى صالحية، **مدينة القدس: السكان والأرض (العرب واليهود) 1275–1368هـ/ 1858–1948م**، 2009.
23. رأفت فهد مرة، **الحركات والقوى الإسلامية في المجتمع الفلسطيني في لبنان: النشأة – الأهداف – الإنجازات**، 2010.
24. سامي الصلاحات، **فلسطين: دراسات من منظور مقاصد الشريعة الإسلامية**، ط 2 (تمّ النشر بالتعاون مع مؤسسة فلسطين للثقافة)، 2010.
25. محسن محمد صالح، محرر، **دراسات في التراث الثقافي لمدينة القدس**، 2010.
26. مأمون كيوان، **فلسطينيون في وطنهم لا دولتهم**، 2010.
27. محسن محمد صالح، **حقائق وثوابت في القضية الفلسطينية: رؤية إسلامية**، 2010، طبعة مزيدة ومنقحة ومصورة، 2020.

28. عبد الرحمن محمد علي، محرر، **إسرائيل والقانون الدولي**، 2011.
29. كريم الجندي، **صناعة القرار الإسرائيلي: الآليات والعناصر المؤثرة**، ترجمة أمل عيتاني، 2011.
30. وسام أبي عيسى، **الموقف الروسي تجاه حركة حماس: 2006–2010**، 2011.
31. سامي محمد الصلاحات، **الأوقاف الإسلامية في فلسطين ودورها في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي**، 2011.
32. نادية سعد الدين، **حق عودة اللاجئين الفلسطينيين بين حل الدولتين ويهودية الدولة**، 2011.
33. عامر خليل أحمد عامر، **السياسة الخارجية الإسرائيلية تجاه إفريقيا: السودان نموذجاً**، 2011.
34. إبراهيم أبو جابر وآخرون، **الداخل الفلسطيني ويهودية الدولة**، 2011.
35. عبد الرحمن محمد علي، **الجرائم الإسرائيلية خلال العدوان على قطاع غزة: دراسة قانونية**، 2011.
36. نائل إسماعيل رمضان، **أحكام الأسرى في سجون الاحتلال الإسرائيلي: دراسة فقهية مقارنة**، 2012.
37. حسني محمد البوريني، **مرج الزهور: محطة في تاريخ الحركة الإسلامية في فلسطين**، 2012.
38. غسان محمد دوعر، **المستوطنون الصهاينة في الضفة الغربية: الاعتداء على الأرض والإنسان**، 2012.
39. محسن محمد صالح، **القضية الفلسطينية: خلفياتها التاريخية وتطوراتها المعاصرة**، 2012، طبعة مزيدة ومنقحة، 2022.
40. دلال باجس، **الحركة الطلابية الإسلامية في فلسطين: الكتلة الإسلامية نموذجاً**، 2012.
41. وائل عبد الحميد المبحوح، **المعارضة في الفكر السياسي لحركة المقاومة الإسلامية (حماس) 1994–2006: دراسة تحليلية**، 2012.
42. محسن محمد صالح، محرر، **أزمة المشروع الوطني الفلسطيني والآفاق المحتملة**، 2013.
43. بلال محمد، محرر، **إلى المواجهة: ذكريات د. عدنان مسودي عن الإخوان المسلمين في الضفة الغربية وتأسيس حماس**، 2013.
44. أحمد جواد الوادية، **السياسة الخارجية الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية 2001–2011**، 2013.
45. ناصر عبد الله عبد الجواد، **الديموقراطية الزائفة والحصانة المسلوبة: زفرات نائب عن الضفة الغربية في المجلس التشريعي الفلسطيني**، 2013.

46. محسن محمد صالح، **الطريق إلى القدس: دراسة تاريخية في رصيد التجربة الإسلامية على أرض فلسطين منذ عصور الأنبياء وحتى أواخر القرن الحادي والعشرين**، ط 5، 2014، ط 6، طبعة مزيدة ومنقحة، 2023.

47. عبد الله عياش، **جيش التحرير الفلسطيني وقوات التحرير الشعبية ودورهما في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي 1964–1973**، 2014.

48. محسن محمد صالح، **مدخل إلى قضية اللاجئين الفلسطينيين** (تمّ النشر بالتعاون مع أكاديمية دراسات اللاجئين)، 2014.

49. محسن محمد صالح، محرر، **حركة المقاومة الإسلامية (حماس): دراسات في الفكر والتجربة**، 2014، ط 2، 2015.

50. ماهر ربحي نمر عبيد، **البناء التنظيمي والفصائلي للأسرى الفلسطينيين في سجن النقب**، 2014.

51. محسن محمد صالح، محرر، **قطاع غزة: التنمية والإعمار في مواجهة الحصار والدمار**، 2014.

52. محسن محمد صالح، محرر، **السلطة الوطنية الفلسطينية: دراسات في التجربة والأداء 1994–2013**، 2015.

53. عطا محمد زهرة، **البرنامج النووي الإيراني**، 2015.

54. باسم القاسم، **صواريخ المقاومة في غزة: سلاح الردع الفلسطيني**، 2015.

55. رائد نعيرات وسليمان بشارات، **النظام السياسي الفلسطيني: إشكاليات الإصلاح وآليات التفعيل**، 2016.

56. رامي محمود خريس، **الخطاب الصحفي الفلسطيني تجاه المقاومة الفلسطينية: دراسة تحليلية وميدانية مقارنة**، 2016.

57. فرحان موسى علقم، **النزاع على السيادة في فلسطين في ظلّ اتفاقيات أوسلو: المخزون المائي في الضفة الغربية نموذجاً**، 2016.

58. خلود رشاد المصري، **النسوية الإسلامية ودورها في التنمية السياسية في فلسطين**، 2016.

59. باسم القاسم وربيع الدنان، **مصر بين عهدين: مرسي والسيسي: دراسة مقارنة، (1) التغيرات الدستورية والانتخابات**، 2016.

60. باسم القاسم وربيع الدنان، **مصر بين عهدين: مرسي والسيسي: دراسة مقارنة، (2) الأحزاب والقوى السياسية**، 2016.

61. باسم جلال القاسم، **مصر بين عهدين: مرسي والسيسي: دراسة مقارنة، (3) الأداء الاقتصادي**، 2016.

62. باسم جلال القاسم، **مصر بين عهدين: مرسي والسيسي: دراسة مقارنة، (4) الأداء الأمني والقضائي**، 2016.
63. ربيع محمد الدنان، **مصر بين عهدين: مرسي والسيسي: دراسة مقارنة، (5) الأداء الإعلامي**، 2016.
64. ربيع محمد الدنان، **مصر بين عهدين: مرسي والسيسي: دراسة مقارنة، (6) السياسة الخارجية**، 2016.

- **ملاحظة:** تمّ جمع الكتب الستة السابقة في مجلد بعنوان **مصر بين عهدين: مرسي والسيسي: دراسة مقارنة**، وصدر عن المركز في 2016.

65. أحمد حامد البيتاوي، **العملاء والجواسيس الفلسطينيون: عين إسرائيل الثالثة**، 2016، ط 2، 2024.
66. عدنان أبو عامر، **منظومة الأمن الإسرائيلي والثورات العربية**، 2016.
67. أشرف عثمان بدر، **إسرائيل وحماس: جدلية التدافع والتواصل والتفاوض 1987–2014**، 2016.
68. أمل عيتاني ورنا سعادة وفاطمة عيتاني، معدّون، محسن محمد صالح، محرر، **الجماعة الإسلامية في لبنان 1975–2000**، 2017.
69. بلال محمد شلش، محرر، **سيدي عمر: ذكريات الشيخ محمد أبو طير في المقاومة وثلاثة وثلاثين عاماً من الاعتقال**، 2017.
70. أحمد خالد الزعتري، **العلاقات التركية الإسرائيلية 2002–2016**، 2017.
71. خالد إبراهيم أبو عرفة، **المقاومة الفلسطينية للاحتلال الإسرائيلي في بيت المقدس 1987–2015**، 2017.
72. سعيد طلال الدهشان، **كيف نقاضي إسرائيل؟: المقاضاة الدولية لإسرائيل وقادتها على جرائمهم بحق الفلسطينيين**، 2017.
73. قتيبة وليد غانم، **الأصولية الدينية في الجيش الإسرائيلي: الأسباب والتداعيات على "الديموقراطية في إسرائيل" 1995–2014**، 2018.
74. وائل خالد أبو هلال، **حوارات في تاريخ الحركة الإسلامية في فلسطين المحتلة سنة 1948 مع الشيخ رائد صلاح**، 2018.
75. عبد الحكيم حنيني، **منهجية حركة حماس في العلاقات الخارجية: سورية نموذجاً 2000–2015**، 2018.
76. غسان محمد دوعر، **قواعد الشيوخ: مقاومة الإخوان المسلمين ضد المشروع الصهيوني 1968–1970**، 2018.
77. محمد أكرم بلعاوي وحسان عمران، **تفكيك الخطاب الموالي لإسرائيل: الهند نموذجاً**، 2019.

78. عزام عبد الستار شعث، **توجهات النخبة السياسية الفلسطينية نحو الصراع العربي – الإسرائيلي (دراسة تحليلية ميدانية)**، 2019.
79. شاكر الجوهري، **د. موسى أبو مرزوق: مشوار حياة: ذكريات اللجوء والغربة وسنوات النضال**، 2019.
80. أحمد مبارك الخالدي وأنيس فوزي قاسم، **رأي استشاري في حل المجلس التشريعي الفلسطيني**، 2019.
81. شادي سمير عويضة، **استغلال الغاز الطبيعي في حوض شرق البحر المتوسط وعلاقته بالنفوذ الإسرائيلي في المنطقة**، 2019.
82. محسن محمد صالح، **الإخوان المسلمون الفلسطينيون: التنظيم الفلسطيني – قطاع غزة 1949–1967**، 2020.
83. إيمان أبو الخير، **اعتداءات الاحتلال الإسرائيلي على المرأة في الأراضي الفلسطينية المحتلة 1967 (1967–2019)**، 2020.
84. بلال ياسين، **د. موسى أبو مرزوق: في العمق: قراءة في الفكر الحركي والسياسي لأول رئيس مكتب سياسي لحركة حماس 1997–2017**، 2020.
85. سعيد محمد بشارات، **دور تيارات الصهيونية الدينية في الحياة السياسية في إسرائيل 2000–2019**، 2021.
86. شيرين طارق عيساوي، **المسؤولية الجنائية الفردية عن الانتهاكات الجسيمة بحق الأسرى والمعتقلين الفلسطينيين بموجب القانون الدولي العام**، 2021.
87. محمد بلعيشة، **الصفقات الفاوستية: التغلغل الإسرائيلي في جمهوريات آسيا الوسطى**، 2022.
88. محسن محمد صالح، **أوهام في العمل الفلسطيني**، 2022.
89. محسن محمد صالح، محرر، **دراسات في التطبيع مع الكيان الصهيوني: الدراسات الفائزة في المسابقة البحثية الدولية "لا للتطبيع"**، 2022.
90. عبد اللطيف خضر سده، **الاستيطان الإسرائيلي في الضفة الغربية من منظور القانون الدولي**، 2022.
91. محمد عبد ربه مطر، **الطريق إلى صفقة وفاء الأحرار: "صفقة شاليط" 2006–2011**، 2022.
92. **خمسة آلاف يوم في عالم البرزخ: مذكرات الأسير حسن عبد الرحمن سلامة في العزل الانفرادي داخل السجون الإسرائيلية**، 2022.
93. وليد عبد الحي، **دراسات مستقبلية في العلاقات الدولية: نماذج تطبيقية**، 2023.
94. إسلام شحدة العالول، **التطهير العرقي ضدّ الشعب الفلسطيني: فعل استعماري استيطاني صهيوني محوري ومستمر**، 2023.

95. عبد القادر ياسين، محرر، **التشكيلات المؤازرة للمقاومة الفلسطينية في مصر: دراسات في ثلاثة نماذج**، 2023.

96. محمد محمد المصري، **الكاهن الثائر منويل مسلّم: اسمعي يا فلسطين**، 2024.

97. محمد صبحة، **التجربة الثقافية لحركة حماس في السجون الإسرائيلية**، 2024.

98. محسن صالح وآخرون، إعداد وتحرير، **يوميات معركة طوفان الأقصى والعدوان الإسرائيلي على قطاع غزة 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023 – 31 آذار/ مارس 2024 (الجزء الأول)**، 2024.

99. محسن محمد صالح، **معركة طوفان الأقصى والعدوان الإسرائيلي على قطاع غزة: تحليلات سياسية واستراتيجية**، 2024.

100. وليد عبد الحي وآخرون، **أوراق علمية حول معركة طوفان الأقصى والعدوان الإسرائيلي على قطاع غزة**، 2024.

101. عاطف الجولاني وآخرون، **إضاءات سياسية حول معركة طوفان الأقصى والعدوان الإسرائيلي على قطاع غزة**، 2024.

102. أسامة جمعة الأشقر، **أرواح الطوفان: نماذج فذّة من البطولة والثبات في طوفان الأقصى**، 2024.

103. محمود عبده سالم، **السياسة الخارجية الإسرائيلية تجاه دولة جنوب السودان**، 2024.

104. حمزة إبراهيم محيسن، **السياسة الإسرائيلية في إدارة الصراع وأثرها على مستقبل التسوية**، 2025.

105. عزام سلطان التميمي، **حماس: فصول لم تكتب**، 2025.

106. فاروق عيسى عاشور، **ذاكرة الجدران المُعتمة: سيرة ذاتية وجماعية للأسرى في سجون الاحتلال الإسرائيلي في أثناء معركة طوفان الأقصى**، 2025.

الإصدارات باللغة الإنجليزية:

First: Serial Publications (25 Volumes and Books):

1. The Palestine Strategic Report Series, 13 Volumes (2005–2023).

2. Am I Not a Human? Book Series, 12 Books.

Second: Non-Serial Publications (15 Books).

للاطلاع على كافة إصدارات المركز انظر: https://www.alzaytouna.net

الكاتب في سطور

د. فاروق عيسى عاشور

- مواليد فلسطين – الخليل، 1973/10/7.
- معتقل في سجون الاحتلال على فترات (أعوام 2010، و2014، و2023).
- عضو مجلس بلدي الخليل سابقاً.
- رئيس اتحاد المنظمات الاجتماعية (الرائد) في أوكرانيا سابقاً.
- دكتوراه في الطب، تخصص جراحة العيون.
- مدير المركز العربي لطب وجراحة العيون، فلسطين – الخليل.
- ناشط اجتماعي وخطيب.

The Memory of Dark Walls

A Personal and Collective Biography of Prisoners in Israeli Occupation Prisons During Operation al-Aqsa Flood

By:

Farouq I.S. Ashour

هذا الكتاب

يعرض هذا الكتاب تجربة إنسانية واقعية، وسيرة ذاتية وجماعية، توثّق الجرائم الإسرائيلية بحق الأسرى الفلسطينيين داخل سجون الاحتلال الإسرائيلي، وفي الوقت ذاته، هو رسالة إنسانية تعكس معاناة الأسرى، وتصور واقعهم الأليم.

ويُشكِّل هذا الكتاب إضاءة مُفصَّلة وواقعية حول السجون الإسرائيلية والتحولات الكبيرة التي طرأت عليها بعد 2023/10/7 مقارنة بما كان عليه الوضع قبلها، وأهمها ما يستهدف إرادة الأسرى وحالتهم النفسية، ومحاولات الإذلال ونشر الفتنة بينهم. كما يسلط الضوء على صمود الأسرى، على الرغم من المعاناة الهائلة والقيود المفروضة عليهم.

إنّ هذا الكتاب ليس مجرد خطاب سياسي أو وثيقة حقوقية، بل هو شهادة تاريخية، ومحاكمة للضمير الإنساني، وشهادة على الانحطاط الأخلاقي للاحتلال الإسرائيلي، ورفضاً وإدانة لجرائمه، أمام عالم عاجز عن القيام بواجبه تجاه الشعب الفلسطيني، وتجاه إنهاء الاحتلال.

ISBN 978-614-494-059-4

9 786144 940594

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات
Al-Zaytouna Centre for Studies & Consultations
ص.ب.: 14-5034 بيروت – لبنان
تلفون: 644 803 21 961+ | تلفاكس: 643 803 21 961+
info@alzaytouna.net | www.alzaytouna.net

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات ـ بيروت